كتاب
الهلال

يوميات طبيب مصرى

# فلسطين

## النكبة الأولى ١٩٤٨

دكتور حسّان حتحوت



# كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »



مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL



**قيمة الاشتراك السنوى** ( ١٢ عددا ) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

# كـــتاب الهــــــــــــــلال




سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة

سميحــة حســـنين






يوميات طبيب مصري

# فلسطين

## النكبة الأولى ١٩٤٨

بقلم

دكتور حسان حتحوت

دار الهلال



تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

# مقدمة

« القضية الفلسطينية » حمالة أوجه .. وقد أصبح مصطلح « القضية الفلسطينية » ذائع الاستعمال فى لغتنا المعاصرة ، ومع ذلك فهو ـ فى نظرى على الاقل ـ مبعث تأمل مشوب بالحيرة .. فعلى مدى حيـاتى حتى الان أبصرت مفهوم القضية يتغير خطوة بعد خطوة . فى شبابى رايته الرفض الكامل لأن يكون لليهود على أرض فلسـطين أى كيان منفصل . فلما قررت الامم المتحدة تقسـيم فلسطين الى دولة عربية ودولة يهودية ورسمت حدود كل منهما كان هناك رفض عربى غاضب لهذا القرار .. وثار اهل فلسطين عام ١٩٤٨ وحملوا السلاح وكانت شكواهم الملحة قلة الذخيرة والعتـاد .. ثم دخلت الدول العربية الحرب « قصد تأديب العصابات الصـهيونية » ولكن العملية انتهت بهدنة فاذا اليهود يضعون يدهم على أكثر مما قررته لهم الامم المتحدة .. وخـلال ذلك ظهرت وتفاقمت مشكلة اللاجئين الذين نزحوا عن ديارهم وطغى مصطلح « مشكلة اللاجئين » على مصطلح « مشـكلة التقسيم » حتى فى الصـحافة العربية .. ثم تفجرت الثورات فى البلاد العربية تمردا على الانظمة التى ضيعت فلسطين بل خذلت جيوشها هى نفسها بالسلاح الفاسد والذمة الفاسدة والادارة الفاسدة .. وعرف العـالم العربى الانظمة العسكرية وصبر على سلبياتها ما دامت وعدته بالحل الحاسم العادل للقضية الفلسطينية .

المهم أن الامور قد أسـفرت عن تطور آخر فى مفهوم « القضية الفلسطينية » ، فاذا بنا الان نستجدى حدود

ماقبل هزيمة ١٩٦٧ ، وغاية آمال المطالب العربية الرسمية استرداد الارض التى استولى عليها اليهود فى يونيو ١٩٦٧ .

المحير كذلك فى موضوع القضية الفلسطينية أن الكثيرين يتبنونها ويعلنون الجهاد فى سبيلها ويذرفون الدموع عليها ولكنهم فى نفس الوقت يختلفون عليها اختلافا يفضى الى الاقتتال والى أقسى صنوف الحرب الباردة والساخنة لا بينهم وبين المغتصبين ولكن بين بعضهم والبعض ..

وتنبت أجيال وأجيال من شبيبتنا كلهم متحمسون للقضية الفلسطينية وكل جيل أسير اللقطة التى وجد الامور عليها فى وقته وأسير صراعات المرحلة سواء عربية اسرائيلية أو عربية عربية أو فلسطينية فلسطينية . أما التاريخ العمودى الكامل فأعتقد أنه غائب ليس عن كثير من الشبيبة فحسب بل ربما كذلك عن كثير من السياسيين . فالقراءة الجادة لم تبلغ بعد أن تكون من صفاتنا القومية العامة .

وهذا الكتاب الصغير الذى نقدمه أبعد الاشياء عن أن يكون تحليلا سياسيا أو دراسيا .. بل هو لقطة من اللقطات فى وقت من الاوقات .. أشبه بالقصة أو الرواية كما ابصرتها عينان شاهدتاها .. ومذكرات عفوية لفترة عشتها فى فلسطين عام ١٩٤٨ كتبتها هناك ثم علقت عليها بعد عودتى مباشرة ثم مرت عليها عشرات السنين ولم تخطر لى ببال فكرة نشرها على الاطلاق . وكان ذهابى لفلسطين قبل ان تعلن الدول العربية حرب ١٩٤٨ وما كنا نعلم انها ستعلن . قام اهل فلسطين بالكفاح المسلح وكان للهلال الاحمر المصرى مستشفى فى مدينة الرملة والظاهر ان امور المستشفى كانت متعثرة . وكنت أتمنى اذا نجحت

فى امتحان التخرج لو استهللت حياتى الطبية بمد يد مساعدة للاخوة المناضلين بفلسطين ثم تصادف أن طلب الهلال الاحمر أطباء يقومون على أمر المستشفى كرسالة وجهاد وعقيدة .. فكان أن ترتب سفرى وسفر الزميلين احمد سعيد خطاب رحمه الله وأحمد الملط عافاه الله .
وطاف بخاطرى أن أصحب « نوتة » صغيرة بدأت التدوين فيها ومازلت بالطائرة صحبة الاخ خطاب . ومازالت هذه « النوتة » عندى من ذخائرى التى أعتز بها . وكانت النية والامل أن تنتقل فى ذريتى من جيل الى جيل .. حتى قرأها أخيرا « ١٩٨٧ » أحد أصدقائى الاطباء الفلسطينيين فأوصانى بنشرها ، وتحالفت معه زوجتى على ذلك حتى غلبانى . فرأيت أن أسلم المذكرات لصديقى وولدى الحبيب المهندس أحمد طاهر ليقوم على نشرها ، وآثرت أن تظل كما هى وبالصورة العشوائية التى كتبت بها ..
وهى لقطة أخرى لمرحلة من المراحل ، وانطباعات اتسقت فى الخاطر أضعها تحت أنظار جيل لم يعايشها لعله يضمها لصور تلتها فتثرى بها حصيلته .. ولقد يجد فيها فوق ذلك تسلية وتسرية فتكون أغرى على قراءة الواقع بجانب قراءة الخيال .
وكانت زوجتى لاتزال خطيبتى عندما آذنت بالسفر ..
وفتشت فى أوراقى فعثرت على خطاب اليها وخطاب منها ، ورغم خصوصيتهما فقد استأذنتها أن أنشرهما وقد مضى عليهما أربعون عاما .. صورة عاطفية لمقدمات رحلة الى المجهول .. ولست على كبير دراية بما يتراسل به خطيب وخطيبته فى أيامنا هذه فلعله نموذج يقرؤه شباب هذا الزمان ليروا كيف كان الاسلوب أيام زمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

ابريل ١٩٤٨

سلوناس
سلام لك ورحمة الله وبركاته
أسعد الناس من اذا رحل رحل مطمئنا لا ينوشه القلق على شريكته .. واثقا من أنها نبع من القوة يغذيه فى غربته فيشحذ من عزمته .
وأشقى الناس من أغترب فلم يزل طيفها امامه شاكية او باكية .. فهى ثغرة فى نفسه وجمرة فى كبده وشتات فى فكره ووهن فى كيانه . أعشق القوة وأعشقك ..
فتلبسى بمعانى القوة فى باطنك وظاهرك تكفينى عذاب التناقض بين ما احب ومن احب .
يسلم الكل بسلامة مكوناته . بصحة اللبنة يصح البناء .. وبصحة الوحدات الانسانية تصح الانسانية . وأنا وانت وحدة فى الانسانية ولبنة فى البناء ما يشفع لها ان نصفها قوى ونصفها ضعيف . كلا بل نحن نصفان قويان فى لبنة . الحياة الحركة . والسكون الفناء ! أم تودين ان تكون حياتنا تافهة فاترة خامدة ليس فيها الا الموت ؟
وبعد ايتها الحبيبة فاننى اود ان أكتب اليك .
وجعلت لك جلستى بعد فكرتى وقد مضى من الليل هزيع وكاد هزيع . ويشاء العمل فى المستشفى أن يقاطعنا فتمر ساعة كاملة بين السطر الاول والسطر الثانى من هذا الكلام ، وتمر ساعة فى خلاله فهى الان الثانية بعد منتصف الليل . واعود فأجلس اليك .

ولو انني سافرت في المرة الاولى لكان وداعا ابتر . اما وقد كتبت اليك فيريحني أن اذهب بعد ان سكبت معاني على هذه السطور وأودعتها عندك . فعسى الا يكون سفري بعد ذلك أمرا على غرة . وعسى ألا يكون في نفسك او نفسي ماينال النفوس اذا أخذت على غرة .

سأسافر ان شاء الله . سفرا مشرفا لا يخجل صاحبه يوم القيامة .

وستبقين انت . بقاء مشرفا لا يخجل صاحبته يوم القيامة .

وسأغيب مدة طويلة .

طويلة لا بعدتها من الليالي والايام . ولكن لانني لن القاك في خلالها . وقد علمت أنني مافرغت من وداعك مرة الا وأنا شارع في انتظار اللقاء التالي وفي استعجال هذا اللقاء .

وتعلمين ما أنت لدى ومن أنت عندي .

فلتعلمي انني سعيد بالسفر يا احب الناس الى واعزهم على .

انا سعيد بهذه الفترة من الفراق . تماما مثلما كنت سعيدا اذ تسيرين بجواري ونحن نتقي اللمسة وغير اللمسة على ظمأ الى اللمسة وغير اللمسة . والنفوس العميقة الصافية المؤمنة أقوى من سائر النفوس على ما تعترى به الحوادث والظروف .

والعشاق المؤمنون يدينون بالمعاني ويدينون لها الاحاسيس . ولقد يستعذبون الفراق ويطربون للبعاد مادام ذلك لوجه الله أو لوجه معنى كريم والحب الذى بيننا قبس من روح الله الازلي . سيان لديه البعد والقرب والمغيب والمحضر . ولن تفصلنا مسافة مكانية

ولا مسافة زمانية . بل نحن على الوصال القائم والشهود الدائم . وذلك من فضل الله .

وتعلمين اننا نظلم نفسينا لو وكلناهما بما نفرضه على سائر الناس . وما اطالب القنديل بضوء شمعة . ومن زاد فضل الله عليه زاد حق الله عليه .

وانما بنيت بك على صحبة الدنيا والاخرة . ففيم تخافين ومم ؟. ولو أنه الموت لكان بابا نلجه الى ملتقى يضمنا لا الى منشعب نفترق عليه .

وما دمنا صحبة من قبل ومن بعد فسيان عندك وعندى ان امر قبلك أو تمرى قبلى اختاه ..

الخلود ارسخ من ان يهزه امر الدنيا .

والدنيا فى ذاتها ارسخ من أن يهزها أمر وقتياتها ومؤقتاتها وعوارضها وأعراضها ..

ولذلك فان سفرى الى فلسطين لا يستطيع ان يحول عين الامل والرجاء عن نجاحك فى السنة الثالثة ، ثم تخرجك .. ثم المعيشة معك فى بيتنا الذى يبرح بنا الشوق اليه . اتفهمين ياسلوناس ؟ هو بيتنا نحن الاثنين .. أنت وأنا . لى عرض الجهاد اذن . أما جوهره فموكول بك معقود عليك . واستحلفك بالله ألا تقصرى فيه لا من اجلك ولكن من اجلنا . وأنت تعلمين .

أنا ماض اذن لأجاهد . وأنت باقية لتجاهدى . فليبذل كل وسعه . أما أنا فسعيد على البعد سعادة المطمئن الراضى لا سعادة الذى يدرع بالقسوة ويتكلف الخشونة . فكونى كذلك أسعد بك فى الصحو والحلم .

قد كفتنى نفسى أمر نفسى .. فهل تكفيننى أمر نفسك ؟ حقا ؟.. شكرا !

وما يغيب عنى كما لم يغب عنك ان هذه الفترة التى

نفترق فيها قد تكون مليئة بالاحداث والاعاجيب ..
قد يولد ناس ويذهب ناس . وقد يشفى ناس ويمرض ناس . وقد تلين الحياة او تجف . ولكن كونى دائمـــا اجف من الحياة على حاليها .. وافعلى دائما ما كنت افعله انا لو كنت موجودا وانت أعرف الخلق بنفسى .. واستلهمينى امرك فى السر والعلن . وغيرى اى شىء الا انك لى واننى لك . ذلك كلام اذا جاوبتنى به ــ وانت كذلك ــ فليس فى السفر عقبات وليس فيه هموم وليس فيه الشيطان .

وقفى مواقفك لا وحدك ولكن معى . اما هناك فساكون معك .. ولن اتركك طرفة عين ولا أقل من ذلك . وانت العون وانت المدد ان شاء الله . كل امر يهون ما دمت تهونينه . فكونى أكبر من كل شىء يصغر امامك كل شىء . واجعلى محور حياتك الصلة بالله . ادخلى رحابه وعيشى فى كنفه . واجعلى ما بينه وبينك ودا عامرا . وما اردت فخذى منه . واسـأليه لنا الخير كل الخير . وما دمت توصيننى الخير بصحتى ، فلأقم لانام كسرة من الليل . ولئن تركتك مسطرا فما اتركك مفكرا .. ايتها الحبيبة .

هى رسالة لك ايتهـا الحبيبـة كان من الجحود الا تناليها . وهو شعور فى ايتها الحبيبة يكون من الجحود الا اومىء اليه .

وما انا ببالغ على الورقة ما اشتهى . فحديث نفسى ونفسك لا ينتهى . ولكنها قصاصة ورمز وشعيرة .. لك بعدها ما تعلمين واكثر مما تعلمين .

بل هو وداع الى حين . من النفس المطمئنة .. حتى ترجع اليك راضية مرضية . فاحفظي عني وصوني لي

يا ايتها الاخت الوفية والزوجة المخلصة .

وأذا رحلت فزودينى من بطولتك وصلابتك ماتزودينني من حنوك وعطفك .

وفيضي على من ايمانك العميق وروحك الصـــافية ونورك الغامر .

ونحن من قبل ومن بعد على كف الله وبعينه . ولك الحب وعليك السلام ياسلوناس .

حســان

بسم الله الرحمن الرحيم

ابريل سنة ١٩٤٨

حسـان

بسم الله انت ذاهب الى فلسطين وفى سبيل الله والانسانية ما انت مقدم عليه ، ومن اجل الاوطان العربية المقدسة قد طاب لك الجهاد ـ بل أنت تدرك ان كل جهاد فى اى بلد عربى انما هو جهاد فى سبيل مصر ، وقد اصبحنا نؤمن أن السبيل الوحيد الى التخلص من الاستعمار على اختلاف صوره ، هو اتحاد العرب جميعا فى انحاء الارض اتحادا معنويا وماديا يكفل لهم عزتهم ويجدد لهم مجدهم وسيادتهم .

وانت تدرك ايضا أن هذا العمل الباسل الجليل الذى تقدم عليه ليس الا اول خطوة فى سبيل تحقيق آمالنا القومية ، وقد شاء الله ان تبدأ جهادك فى فلسطين فلعل مشيئته العالية ترعاك حتى تعود الى مصر فنواصل الجهاد سويا فى مختلف الميادين .

وكم كنت اتمنى أن أشاركك هذا الشرف وان أصحبك فى رحلتك هذه الى فلسطين ولكن يبدو ان الاقدار تريد أن تميزك وان تجعل لك على درجة حتى فى الجهاد .

لا يعلم الغيب الا الله ، فلا تدرى انت ولا ادرى انا ماذا سيحل بنا فى هذه الشهور الستة التى ستفرق بيننا ولكن لك ان تعلم ان حياتك هى حياتى ، فاحرص عليها ما استطعت . وان روحك متصلة بروحى اذا نالها خير فانا معك فرحة طروبة وان آلمها امر فانا معك متألمة مواسية ، وان هذه الصلة سرمدية باقية ليس لها انقطاع على القرب او البعد ، ولا لها امتناع حتى لو امتنعت عن احدنا او كلينا تلك الحياة التى هى الحياة الدنيا .

ليس لدى كثير من القول اوجهه اليك فان فى قوة ايمانك ذخيرة اطمئن اليها ، ولكن لدى كثيرا من الرجاء اوجهه الى الله العلى القدير ان يحصنك بعنايته وان يكتب لك السلامة فى كل حركاتك وسكناتك وان يبارك فى جهادك ، وان نلتقى على خير انه سميع مجيب .

سلوناس

هذه فلسطين قد طال الزمان بها
ولم تزل تشتكى قيدا وقضبانا

غدر «الغريب» بها لون . وكم شهدت
غدر « القريب » أفانينا والوانا

قضية كسراب الماء مزمنة
كم استغل محامونا قضايانا

قميص عثمان كل يدعيه فيا
ويح القميص المعنى .. ويح عثمانا

ليلى : تعددت الاقياس نائحة
وكل قيس على ليلاه غنانا

« عن ديوان جراح وأفراح للمؤلف »

## القيام : ٨,٣٠ من ألماظة

الساعة ٩ : تحتنا الاسماعيلية والبحيرات المرة وقناة السويس . ٩ر٢٥ تحتنا البحر الابيض المتوسـط .
وبحيرات مؤقتة على الساحل . واحات صغيرة على رقعة الصحراء الشاسعة . انعكاس صور السحب على الماء جميل جميل . نحن فى كون أزرق . هاهى ذى العريش .. على بعد ٣٠ ميلا .

الارض شاسعة . ولا يخيل لى أن الطائرة تكاد تتحرك.

استرحنا الان من طقطقة طبلة الاذن التى كانت تنتابنا ونحن نصعد الثمانية الالاف من الاقدام فى الجو .

البرد لطيف . مثل ربيع الشمال .

٩ر٤٠ خمس دقائق من الهبوط المستمر . شىء رهيب. ولكن زميلنا الامريكى قال ان ذلك لاننا نقترب من الشاطىء. انهم فوق البحـر يعلون كثيرا حتى اذا تعلطت الالة كان عندهم الفرصة للانحدار . أخذت أصواتنا تخفت كثيرا نظرا لازدياد كثافة الهواء .. ولكن ماهذا انه مطب هوائى مفاجىء كدت أبول له لولا أن تماسكت .

أنا أصيح فى وجه خطاب وكأنما أناديه من بعد كيلو .

الضغط على رءوسنا وآذاننا كبير كبير ..

تحتنا .. جدا .. ندف من السحاب على صفحة زرقاء من الماء .

١٩٤٨/٤/٢٧

هى الفرصة الاولى للكتابة فى هذه المذكرات .. ليس من ضيق ذات الجهد ولكن من ضيق ذات الوقت.

هنا أطباء اربعة ..

الدكتور يوسف زكى . رجل عجوز عقرية . لولا صلع راسه لقلت ان شعره اشتعل شيبا . هو طيب ولكن يبدو لى انه فقد صلته بالطب منذ امد بعيد . قد يعطى الحقن . ويقتصر عمله على تسلم الامانات المالية من المرضى، وصرف حقن المورفين . والمفروض كذلك انه يراقب الطعام . وفى القليل النادر يقوم بالتخدير بالكلوروفورم . وحدث منه ذلك مرة واحدة حتى الان فى عملية فتح بطن أجريتها أنا وخطاب . وتعمدنا أن نختاره هو حتى لا يصدأ الصدأ المطلق . فأيقظناه فى منتصف الليل وكان منظره لطيفا وهو داخل حجرة العمليات يلبس المريلة والطربوش ويعالج النوم الأصيل باليقظة المتكلفة .

وهو طيب القلب للاخرين دلال عليه ودعابة معه فيما يختص بمأكله ومشربه وطباعه وغير ذلك .

ولا يكاد يتناول طعامه معنا الا نادرا . ولكنه يأكل مع فريد أفندى معاون البعثة فى غرفتهما .

والرجل طيب كثيرا . ولكنه للإسف يشرب الخمر . وقد يكون ذلك سر عزلته عنى واستخفائه منى والله أعلم . وهو يرهبنى ويحترمنى احتراما يخجلنى . ولا يمنعنى كونى المدير من تقديمه على واحترامى له مراعاة للسن وعطفا عليه ..

بالامس جاءنى ممرض اسمه سعيد سيد عبده بمنديل وجده فى سرير أحد المرضى الذين خرجوا . وكان فيه نقود وولاعة وقصيدة . وهى أمانة أحمدها لهذا الممرض .

وقمت أسلم الامانة للدكتور يوسف بك فى غرفته . وطرقت الباب ودخلت . وانتفض يوسف بك وفريد

أفندى واقفين . ولم تكن معدات الشراب امامهما لكن
كانت الرائحة تكفى حتى المزكوم .
وكنت قد أمرت البعثة بابطال هذا . وكان ذلك سر
الذعر . خجلت من يوسف بك الرجل العجوز وهو واقف
امامى كما يقف التلميذ البليد أمام أستاذه .
وسلمته الامانة وأمرته بحفظها عنده لمجهول على أن
انبه المكتب أن لمجهول أمانة لدينا .
وجم الدكتور .. ثم قال لى : الافضل أن ترسلها
للجنة القوميـة لتتصرف فيها . قالها بلهجة لم أتمالك
معها الا أن قلت حاضر وانصرفت فى اسراع يشبه العدو
خيفة أن يرونى مغرقا فى الضحك . وتعاميت عن سكرهما
وانصرفت الى غرفتى أضحك كيف أشاء .
التقينا على مائدة الافطار صباح اليوم . واذا بيوسف
بك يلتفت الى خطاب ويقول له : انت ياخويا جايب لى
امبارح منديل فيه سبعين قرش ؟
ضحكت فى نفسى وتكلفت الوقار وقلت : « دانا اللى
جبته لك يايوسف بك » .
فخجل الرجل . وأحرج . ولكنه قال : « لقد مررت
به على المرضى جميعا فلم أجده يخص واحدا منهم » ..
وضحكت وقلت : « هذا ماقلناه بالأمس . وقلت لى
سعادتك أنك سترسله الى اللجنة القومية للتصرف » .
وأحرج الرجل وهرب الى صحن الطعام .
ومعنا الدكتور محمد العمارة الجزائرى . ابن اخى
الامير عبد الكريم الخطابى . شاب نحيف فى الثلاثين من
عمره . يتكلم المغربية والفرنسية ولكن لا يصعب التفاهم
معه . كان يعمل فى باريس . طيب القلب . غير ثقيـل
الظل . يستطيع أن يتجاوب معنا فيما نحس ونشعر .

يعطى البنج والحقن ولا يمسك المشرط . وفى ملفات نديم باشا طلب بفصله لجهله بالجراحة واحتجاجه بأنه باطنى فقط .

ويعاوننا بعض الشيء زميلان من فلسطين هما الدكتور راسم الخيرى والدكتور أبو غوش من خريجى بيروت وحفظنا مركزنا كريما عاليا علميا وفنيا والبركات من الله .

ولكن ماهذا ..

ان المعاون فى المكتب ومعه ممرضان متشاجران .. والجميع فى ثورة . وقمت ومعى خطاب . وصرفت الجميع بما فيهم خطاب لاصرف معه المعاون . واستدعيتهما وسمعت كلا على انفراد . واحضرتهما وجعلت درسى فى المحبة بين المسلمين . وبكيا وصرفتهما ..

شكرا لك ياأيها الدكتور عمارة .. يقول ان قلبى كبير وان فيه القرآن .

ثم ماهذا ؟..

كنت أود الا يفوتنى وصف الرحلة من أولها .

وكنت أود أن تكون هذه الصفحات صورة كاملة ولو أنها خاطفة .. فمن أين أبدأ ؟

أمن هذا القلق الذى كان يساورنا فى القاهرة وسفرنا يتأجل يوما بعد يوم ؟

أم منذ صار سفرنا أمرا مقررا . فاستعددنا وأعددنا .

وذهبنا الى المطار تصحبنى سلوناس ويصحبنا مسعد وعاطف فكرى ويلقانا الزميل ميشيل .

وهل أخذت من سلوناس ذخيرة من التوديع وقد كان سفرى المزعوم أول مرة مفاجأة واهمة مرة لا حلاوة فيها ؟

نعم . قد أخذت ذخيرتى من التوديع . وأوصيت واوصيت وقد تجلدت فى المطار أمام الناس . ولحظة

ركوبى الطائرة وضعت على أناملى قبلة وضعتها على خدها .

ودخلنا الطائرة . غرفة كالسيارة حارة . وجعلت وجهى للمودعين خلال زجاج النافذة . وكانت قبلاتى كالشعاعات تخترق الزجاج .. وتخترق أمتار الهواء الى هناك .

وجرت ثم طارت .. فاذا البيوت كعلب الثقاب والطرقات كخطوط القلم ..

وحلقنا على السهل والوعر والرمل والبحر .. حتى انحدرنا فاذا تحتنا فلسطين الخضراء !

المزارع المنسقة الجميلة .. أشجار .. وسيارات .. ثم رجال يعملون ..

هذه للعرب .. وهذه لليهود . والارض لله يورثها من يشاء !

وهبطنا الى الارض . وكنت أصم صمما يكاد يكون تاما .

وفرغنا من اجراءات المطار .

المطار مزدحم . يهود وعرب وانجليز . ونظرات ترمقنا وعلى ذراعينا شارات الهلال الاحمر .

وكانت الساعة الحادية عشرة . نعم . فى هذا الوقت القليل صرنا غريبين .

وفى هذا الوقت القليل تقطعت السبل بيننا وبين مصر .. فنحن بمنأى عن أمهاتنا . وعن سلوناس . وعن مسعد وعاطف والصحب والاخوان .

ولم يكن ذلك كل شىء .

لهجة الشام(١) كأنها لغة جديدة تزيدنا شعورا بالغربة .

( ١ ) كانت « الشام » تطلق على فلسطين وسوريا ولبنان والاردن ، ويسمى المصريون اهل هذه البلاد كلها بالشوام .

والنقود التى فى جيبنا لا قيمة لها .. لانها عملة أجنبية !
وذهبنا الى مكتب شركة مصر . وأحسنوا استقبالنا .
وحاولوا الاتصال بالرملة فلم يتيسر . وقام السيد وديع جورج بواب بتوصيلنا فى سيارته الخاصة الى المستشفى.
وهو شاب فلسطينى أتى الى مصر فلم يعرف فيها غير الفندق والكباريه والسباق . وحاول أن ينشىء كباريها فى يافا .. وكانت معه فى ذلك راقصة مصرية كان يدفع لها مائة وعشرين جنيها فى الشهر . وخسر الشاب ألفا وثمانمائة جنيه ..

ولكن ماهذا مرة أخرى ..

بجوارنا مذياع يذيع الانباء من مصر .. ونسمع أنباء عن حفل تقيمه مبرة محمد على فى فندق سميراميس .
ان مصر تلهو وتعبث .. والجو هنا يتنفس بالرصاص ويتهامس بالقنابل .

واذن فلقد تطوع السيد وديع جورج بواب بحملنا فى سيارته الى الرملة .. وحملوا أمتعتنا ورفضوا أن يأخذوا اجرا .

الطريق جميل . الريف كالريف فى مصر . ولكن الجو يفوح بأريج الزهر وعطر البرتقال . جمال ما بعده من جمال !

ووصلنا المستشفى ..

ان السيد وديع حينما كان يعطينى عنوانه فى جبل العرقنجى بيافا كان يساهم بيديه وتقاطيع وجهه فى النطق بالعنوان . ان الشوام عاطفيون طيبون .. ولهم فطرة تمثيلية مسلية .

واسترحنا الى اللهجة المصرية التى سمعناها فى المستشفى . وصعدنا لنقابل الدكتور اللواء عبد الرحمن

نديم باشا . وطالما حدثونا فى القاهرة عن اللواء عبد الرحمن نديم باشا . وقالوا لنا انه طالما رد من يأتيه من الاطبـاء والموظفين .. وأوصونا بألا نرجع للقاهرة والا نبرح مهما كانت الظروف . وصعدنا اليه .

رجل أقرب الى القصر .. عادى فى كل شىء . بطىء النبرات خافت الصوت . كان استقباله لنا وسطا . وشجعنا وتمنى أن نكون أفضل من الاشكال التى مرت عليه من الاطباء !!

وهو طيب على وجه العموم . وهو يصلى .

ولكل امرىء من دهره ماتعود . ونديم باشا سلخ حياته فى الجيش فتشبع بالنظام العسكرى المصرى ..

ولذلك فلقد سمعت فيما بعد انه كان ينفذ عقوبة الجلد فى بعض افراد البعثة ..

وفى أول اجتماع عقده لهم قال انهم لمامة .. وهكذا سمعت منهم والله أعلم .

والذى آخذه عليه بطؤه الشديد فى أعماله .. انه كان ينفق عشر دقائق ليرسم خطا فى جدول . فهو يحضر المسطرة .. ثم يقوم فيستبدلها بأخرى .. ثم يقيس المسـافة ليكون الجـدول متوازيا .. ثم يركب ورق الكربون ..

وجلست جواره وقتا طويلا وهو فى هذه الحال وفى ضرب وقسمة وجمع وطرح . وكنت أستأذن منه دقائق بين الفينة والفينة أتنسم فيها بعض الهواء .

وهذه الدقة فى العمل الادارى لم تدع له مجـــالا للمساهمة فى الجراحة بشىء على الاطلاق .

وسلمته خطاب القاهرة . وكان يحسبه خطابا اثبت فيه شخصيتى . وقرأه فوجد أن القاهرة تطلبه للتفاهم

معه شفهيا وتفصيليا فى أمر شكاواه .. وتأمره بتسليم عهدة المستشفى لى والعودة فى أقرب وقت .

وردد الباشا : « خطاب مش واضح » .

وما كدنا نستريح حتى أخذتنا الجراحة الى ساعة متأخرة من الوقت . وعملت مع خطـــاب فتح بطن واستخراج رصاص وشظايا وتصليح جراح .. .. .. والخير كثير .

وأسرنى الباشا الى جواره بقية الوقت وأنا أنتظر جرد العهدة . وفى اللحظة الاخيرة سلمنى اقرارا من فهيم افندى بأنه تسلم عنه العهدة .. وسلمنى ١٤١٦ أمبول مورفين بقيت من الالاف الســـــتة التى ارسلت من القاهرة .

١٩٤٨/٤/٣٠

وما كنت أتوقع أن ينقطع حبل الكتـــابة حتى اليوم بل حتى الساعة .

عمل مستمر أخذنى من هذه المذكرات أخذا فى مساء يوم ٢٧ .. عمل شاق . أنا وخطاب نعمل أكثر من خمس عشرة ساعة فى اليوم حتى لقد أصبح وقت الفراغ حلما من الاحلام .

والان أجلس فى الساعة العاشرة مساء . وكما ينقر هذا القلم بسنه ينقر الرصاص من حولنا . يبدو أن هناك اشتباكا الليلة . فاللهم سلم . فما نحن بحاجة الى عملاء جدد . ولم يكن لدينا صباح اليوم من عمـــل الا حالتان أجلناهما من أمس . وكنا مستبشرين مطمئنين فى الصباح فلم يلبث رزقنا أن جاء .. من المجـــاريح والمصابين ..

وذهبنا لصلاة الجمعة بالمسجد . وكانت خطبـــة

لطيفة مناسبة لظروف الجهاد الحالى الذى رجحت فيه كفة اليهود حتى الان .

وعدنا فأنجزنا عملية بتر ساقى صبى . وعملت أنا وخطاب فى وقت واحد .. كل على ساق ..

وما كدنا نفرغ من العملية حتى وصل الطيار المصرى محيى الدين سوسة الذى كان فى أسر اليهود بتل أبيب. بصحبة المسيو دى رينييه رئيس الصليب الاحمر الدولى . وكنا فى المدة الاخيرة مشغولين به . بعد أن اتصل بنا رئيس الصليب الاحمر ورتبنا أمر احضار الطيار المذكور ..

وقد سمعنا عنه من قبل أن نأتى الى فلسطين . كان يركب طائرته الخاصة واضطر الى النزول عند الصهيونيين فأخذوه . وسارعوا بفك طائرته حتى اذا ما جاءت طائرات للبحث عنه لم تجد أثرا . وظل فى اسرهم حتى اليوم .

واحتفينا به وشكرنا عليه رئيس الصليب . وأخذت لنا بعض الصور . ولم يطل بهما المقام اذ كانا على عجل. وأسلمته رسالة للدكتور سلهب . وانصرفا .

واذن فلقد صعدنا الى نديم باشا فوجدناه أقرب الى القصر عاديا فى كل شىء . وكان منه ومنا الذى كان . ونزل الينا فى حجرة العمليات أول ليلة وأبدى بعض الملاحظات عن الاقتصاد فى الخيط وغير ذلك . وقال لنا انه كان يود أن تكون هذه فرصة يتدرب فيها على الجراحة ولكنها ضاعت منه .. انه كان يضمد اصبعه طول الوقت منذ قدوم البعثة .. فان باب سيارة «زنق» ظفره فأضاع عليه الفرصة .

وأذاقنا الباشا كنافة الشام . حبل من الكنافة ملفوف

فى علبة . ولكن الباشا أخذ بقيتها معه الى القاهرة .
كما أخذ برتقالا وزيتا وغير ذلك .
وأدهشنى أن الباشا وقت السفر لم يهتم بالسلام على .. فاضطررت أن أسرع الى سيارته لتحيته . لانى شعرت ان الموقف يكون ماسخا كثيرا اذا لم أحيى الباشا عند رحيله .
وأصبحت المدير فى رحيل الباشا . ووجدت نفسى كالغريب الذى يتحسس طريقه فى الظلام .
وفى اليوم الذى أصبحت فيه مديرا جاءنى من مصر ستة عشر ممرضا جدد . وهم عبء جديد .
وجمعت الجدد فى مكتبى والقيت فيهم كلمة .
وجمعت الجميع والقيت فيهم كلمة . وقلت لهم اننا كلنا أخوة ولكن لكل حقوقا ولكل واجبات ولكل حدا يلزمه . وحدثتهم ونزلوا راضين .
من أشق الامور أن تصبح مديرا على أكثر من اربعين نفسية متباينة . فيهم الشرس وفيهم الغبى وفيهم المغرور بجانب الوديع والفطن والمتضع . رجال فى غربة . لا رابطة بينهم . ولا رابطة بينى وبينهم .
ولكن ما هذا ؟
انقطع النور الان . ويحدث ذلك غير قليل فنضطر الى اجراء العمليات بالفوانيس وتشغيل موتور المستشفى ولكنى الان أكتب على ضوء شمعة من الشموع التى زودتنى بها والدتى . كان مكانها أمامى على المنضدة وجوارها علبة الثقاب . لذلك لم أغادر مجلسى حينما غاب النور .
من المؤلم أن شركة النور بالرملة يديرها يهود .

والان نهق حمار من حمير فلسطين . حتى حمير الشام تنهق فى نغم شامى غير هذا الذى فى مصر . ان لهب الشمعة فى الرملة يذكرنى بلهب المصباح فى فاقوس .

واها لى من راع ..

أكثر من أربعين رأسا ناطحة متناطحة .

وطريقتى الى الان طريقة الذوق المحض . وطريقة التربية البدائية . وطريقة عيسى عليه السلام .

وهى طريقة قد نجحت الى حد كبير .

ان هؤلاء المتمردين اصبحوا الان يقومون فى الصباح الباكر لكنس الأرض وغسلها .

وصار للاخلاق الطيبة بعض القيمة لديهم .

واحسوا .. بعض الاحساس .. بجمال المعنويات والفضائل .

ولكن لا تزال هناك مشاكل ..

هناك حزازات بين بعض الرءوس .. وخاصة الرءوس الكبيرة والتى هى على جانب من الثقافة . التحاسد والغيرة والدس والوشاية والنميمة . رذائل فى نفس الانسان أتيح لى أن أشهد منها صورا كثيرة .

وتضيق نفسى اذ تسمع من كل عن الاخر . وتسمع التصريح فتجزع .. أو التلميح والتعريض فتزيد جزعا. يستطيع الناس أن يعيشوا فى أكناف السعادة لو تعهدوا بذرة المحبة وأعطوها الفرصة لتنمو فى قلوبهم . ولكنهم للاسف لا يفعلون .

وهم لا يتكارهون لدوافع اقتصادية كما يقول أصحابنا الشيوعيون . وانما يتكارهون بتأثير هذه النقائص النفسية والعلل الخلقية . انها الازمة الاخلاقية البحتة واضعها انا فى المقام الاول . فى حجرة العمليات ممرض

يؤذيه أن يبزغ نجم غيره فى الاحاطة بالعمليات . ولا يضيره لا ماديا ولا أدبيا أن يعلم غيره ما تعلم . ولكنه مفرم دائما أبدا بالقدح فى غيره والمدح فى نفسه . وهو يتبجح ويتدلل ولديه عقيدة راسخة بأن العمليات انما تقوم على أكتافه. وطالما قال فى سخرية ودلال انه يود ترك العمليــــات والاشتغال بعمل آخر اعتمادا على هذه الفكرة الراسخة لديه حتى كان اليوم فكرر الطلب امام جمع من الرجال فقبلته على الفور وعاد الشاب صاغرا يقابلنى فى غرفتى ليطلب بقاءه فى العمليات . لا .

هذا ولا يخلو الجمع من لص يسرق أو وقح يشتم او خائن يرتشى من المرضى او فظ يسىء معاملتهم . وما اعتقد ان فى البعثة واحدا له عقلية طبيعية .. حتى الاخيار منهم والطيبون .

احدى وأربعون شخصية متباينة متمايزة متميزة .. عدا العمال والعاملات .

انه فن أن تسوس هذا الجمع الخطر . طريق وعرة شائكة . ورءوس صغيرة عنيدة .. ومشاكل تخلق من تفاهات ولا يركنون فى حلها الا للمدير .

ولكن حسن الحظ وفقنى الى اختيار احمد السيد رضوان ليكون حاجبى الخاص ويقوم بخدمتنــا وقت الطعام وتنظيف غرفتى وتنظيمها . ليس الان ملتحيــا ولكن صورته فى جواز سفره ذات لحية . درويش طيب. أحبنى كثيرا وأخلص لى الاخلاص الكامل بل الاخلاص الاعمى . وهو لنا كالام الحنون أو أكثر . يجــــاهد ويكافح لكى يهيىء لنا المزيد من الراحة فى المطعم والمسكن والملبس . وقد أتانى مرة فى مكتبى يطلب عهد الله بأننا لا نتفارق فى فلسطين ولا فى مصر . واعطيته العهد .

من الطف المناظر منظره وهو يرد نداء التليفون .. وما أكاد ادخل غرفة المكتب حتى يقطع حديثه فجأة ويشير الى باصبعه وكانه يقول لمحدثه هاهو ذا قد جاء .

○ شكر الله له . شكر الله له .

طارق جديد .

حارس أصابته رصاصة يهودية مرت بذراعه وجدار صدره وفخذه واستقرت بفخذه بعد أن كسرت عظمته. وقمنا أنا وخطاب فأصلحنا الامر واستخرجنا الرصاصة وجبسنا الرجل . وعدنا الان فى الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل .

ان الصور الجراحية هنا كثيرة . والعمل الجراحى كثير . وتمر أمامنا أشكال من الاصابات والتشويهات تجبر الجراح على أن يبتكر .. وعلى أن يكون جراحا مرتجلا كالخطيب المرتجل . هنا أدخل العمليات وأقول هاتوا واحدا .. فيجيء واحد فدائى .. وتنظره ثم ترتجل خطوطك .. والمشرط فى اليد والفكر فى الرأس.

ولقد شهدنا حالات لم نر فيها الصورة الجراحية فحسب . بل طالعتنا فيها الصورة الانسانية الصارخة.

واستقبلنا كثيرا من النساء والاطفال لم يتورع اليهود عن ضربهم برصاص الرشاشات عمدا وعلى سابق اصرار . بالامس روت لنا امرأة جريحة قصتها . وكيف أن اليهود دهموا منزلهم فى يافا .. فقفزت ابنة لها فى الثالثة عشرة من الشباك ولم تدر مصيرها بعد ذلك فهى تتساءل هل شردت هاربة أم اصابها اليهود . واستطاعت أن تفر مع ابنة فى العاشرة .. وتبعهما زوجها . وسارت الاسرة فى الحقول .. والرصاص والقنابل تتساقط حولها من كل مكان .. حتى أصيب زوجها فى ساقه

اصابة أقعدته فحملته حينا ثم تركته بالوادى ومضت هى وابنتها .. وراحت القنابل والرصاص تنهش الجو من حولهما وهى تقول : يالطيف الطف .. ثم أصيبت برصاصة فى الاعضاء التناسلية من الخارج .. فمضت تزحف من المغرب حتى وصلت الينا فى الصباح . وأشهد انها كانت بطلة متجلدة . وأشهد انها لكبيرة .

فى النساء هنا بطولة .

هذه أم تتقدم الى بكل ثبات . ولدها مصاب لدينا . قتل أبوه أمس . وهو الذكر مع اربع من البنات . وترجونى ان أفعل شيئا لكى يظل فى الاسرة رجل . وهذا طفل انفجر فيه لغم فحرق وجهه ودخلت شظاياه بطنه فاخترقت أمعاءه ومزقت أعضاءه التناسلية ومزقت لحم فخذيه شر ممزق وطاحت بيديه جميعا فذراعاه بلا يدين . وأدخلناه العملية . وعز على أن يموت قبل وداع والديه . فاستدعيتهما . أما الرجل فبكى وخرج . وأما الام فلقد أفهمتها خطورة حالته فجزعت .. ولكنها ما دخلت عليه غرفة العمليات حتى أخذته بالتشجيع والطمأنة فى بطولة وصبر لم أملك معهما الا أن أولى الجمع ظهرى وأذرف دمعة .

وهى قروية جاهلة . ولكن فيها الفطرة السليمة القوية . وفى يوم من الايام استقبلت أما وبناتها الثلاث كلهن مصابات .

واليهود على كل حال يهود .

ان عربة الاسعاف التابعة لنا عليها توقيعات من أكثر من ثلاثين رصاصة .

ان مستشفى الامين بحيفا قد هدمته القذائف .

ان رشاشات اليهود تطاولت على مسجد فضربت

المصلين فيه وضربت امامهم فاستشهدوا جميعا وهم ساجدون . ولقد حضر الى أمس جنديان مصريان من جنود مصر الفتاة الذين كانوا يحاربون فى يافا . كان عددهم خمسة وثلاثين .. عاد منهم اثنان . ويرويان أن اليهود كانوا يتصيدون من يقع فى أيديهم من العرب فيذبحونه بالسكين كما تذبح الانعام !

١٩٤٨/٥/٣

كنت الان مع كاظم .

وهو احدى الشخصيات التى لابد ان تتحدث عنها هذه المذكرات .

اسمه كاظم بدوى . مهنته مهندس ولكنه الان الضابط الذى يتولى الدفاع عن منطقة الرملة . نشيط جدا ما فى ذلك شك . متكلم . ويتحدث بالعربية والعبرية والانجليزية والالمانية .

ولكن يحار فيه الفكر . تسمعه فيؤكد لك أن الرملة حصن حصين لا يمكن أن يصل اليه يهودى ..

ولكنه فى زيارته الاولى لنا شفع كلامه هذا برجاء ان تنقل زوجه وبناته الى مصر ، ونفذنا ذلك فيما بعد .

ولكن ما هذا ؟

ارتج البناء وارتجت قلوبنا معه اثر قذيفة مدفع . وتوقعنا ان يصحو فريد أفندي معاون البعثة ويأتى الينا . ها هو ذا قد سعل . ثم ها هو ذا قد جاء شاكيا ، انه يشكو كاظما ويعيب عليه انه كالطبل الاجوف ، وهذه فكرته عنه .

والواقع ان « كاظم » يتكلم ويبالغ لكى يطمئن الذى امامه .. ومن يسمعه يشعر بالقوة المطلقة والامان المطلق .

ولكن لا اظن حقيقة الحال كما يقول! .
كان عندى اليوم الشيخ حسن سلامة قائد المنطقة الوسطى « راس العين » .
وهو الاخر شخصية لابد ان تتحدث عنها هـــذه المذكرات .
شاب ربعة متوسط القامة متين البنيان . واعنى بشاب انه أقرب للشباب منــه للكهولة . ليس كامل الصلع ولكنه فقير شعر الراس . أقرب للملاحة . ضيق العينين ضيقا ملحوظا ولكنه قوى القسمات والنظرات. قائد ناجح مشهور . تولى الامر بعد وفاة عبد القادر الحسينى رحمه الله اذ استشهد فى القسطل . ولكن فيه الميل الى ان يتولى بنفسه كل صغيرة وكبيرة وليس ذلك صوابا فى أكثر الاوقات .
زارني اليوم ردا على زيارتى له فى القيادة . وكان حديثه لى على النقيض من حديث كاظم .
ان الحالة سيئة سوءا أكثر مما كان يتوقع وأكثر مما كان يظن .
ان العرب ينقصهم الســـلاح . تنقصـــهم المدفعية وتنقصهم المصفحات .

لقد حكم الانجليز البلاد حكما يعاقب بالاعدام من توجد معه رصاصة . ولذلك فقد هبط المســـتوى العسكرى للعرب هبوطا كبيرا عما كان عليه فى الثورة الماضية عام ١٩٣٦ . وجاء قرار التقسيم والسلاح عتيد لدى اليهود ، جديد على العرب . وبذل الناس اكثر من طاقتهم ولكن هيهات أن يفوا بالفرض أو يكملوا العدة .
وكان الامل معقودا على الدول العربية وعلى حكوماتها

وكبرائها وأولى الامر فيها . لقد خلت بهم الحكومات العربية اللاهية الغافلة .

كنت بالامس فى زيارة السيد محمود علاء الدين رئيس بلدية الرملة . لقد كاد الرجـــل يبكى بالدموع وهو يحدثنى . كل شىء سيىء . حتى النـــاس ساءت نفوسهم .

قد جاء زمن يفر فيه العرب من اليهود . ويصبح فيه ذكر اسم اليهود مبعثا للرعب والفزع .

الهجرة قائمة على أشدها جارية على قدمين وساقين!

ولست أعنى هجرة اليهود الى فلسطين ..

وانما أعنى هجرة العرب من فلسطين !

ارتفع ايجار السيارة الى نحو مائة جنيه لنقل الناس والمتاع . وترى سيارة النقل مرصعة بالمهاجرين فما يستغرب أن يركبها خمســون راكبا وأكثر عدا الاثاث والمتاع ..

ويساهم المستشفى فى الحركة .. فقد حدث أن انقلبت سيارة فجاءنا ثلاثون .. ويحدث أن يضرب اليهود برصاصهم هذه القوافل من المهاجرين .

ولم يكن العربى جبانا من قبل .

ولكن ما الذى يستطيع أن يفعله أمام مدفعية اليهود والرشاشات ؟! ..

ما قيمة الخنجر .. أو المسدس . أو البندقية التى تسع بضع رصاصات تطلق واحدة واحدة ويغير المشط كلما نفد العدد الصغير من الرصـــاصات الذى يحويه الخزان . فى وسع اليهودى أن يطلق مائة طلقة قبل أن

يطلق العربى واحدة . وكل يهودى مسلح برشاش .
واذن فان الهجرة قائمة على قدم وســـاق . ان الشجاعة العزلاء اذا واجهت الجبن المسلح انقلبت جبنا وفرارا ما لم يعصمها ايمان عميق . وقليل من الناس المؤمنون !
وصل الرملة مدفع من طراز لويس مهدى من الملك عبد الله .. ان كاظما وضعه فى سيارته وراح يجوب الاسواق وكأنما جاءهم خاتم سليمان . ان هنـــاك خمسمائة طلقة . ودقيقتان تكفيان للفراغ من الخمسمائة طلقة مالم يحرص الجندى عليها . ومع ذلك فهم فرحون به فرح العاقر بوليد جديد .
على كل حال .. رحمة الله قريب .
وفى كل يوم تسرى اشاعات سرى الكهرباء بتحركات الجيوش العربية الى فلسطين .
فيوما يقال ويؤكد ان الجيش المصرى قد دخـــل الحدود . ثم يقال ويؤكد ان مصر ساهمت بســـلاح الطيران وانه ضرب تل ابيب بالقنابل . ويوما يقال انه الجيش السورى .. ثم الجيش الاردنى ثم نســمع الاذاعات فاذا مصر تذيع أنباء الانتصارات العربية المزورة .. ولا تعلم الصحافة والاذاعة انها بذلك تضر بالقضية اكبر الضرر . اننى واثق من أن الشـــعوب العربية لو علمت بحقيقة الحال هنا لاجبرت حكوماتها على التدخل تدخلا جديا لا شفاهيا ولا نظريا . ألم تقم ـ المظاهرات فى مصر للمطالبة بتدخل الجيش عقب احتـــلال اليهود حيفا ويافا ؟! .. ولابد ان النقراشى باشا رئيس وزراء مصر حشد عساكره لقمع هذه المظاهرات .. خوف العتب

والملامة . أولم يضرب ثلاثة الاف من الطلاب فى العراق عن الطعام لتقاعد الحكومة عن نصرة العرب المغلوبين ؟
ونسمع فى الاذاعة عن اجتماعات تعقدها الجامعة العربية . اللجنة السياسية . اللجنة العسكرية . طيران. خطط . كله نفاق ورياء وتخدير اعصاب .
ان الرواية تخرج اخراجا دقيقا ولكنها غير متقنة التمثيل . قالت الدول العربية انها ستتدخل تدخلا عسكريا سريعا حاسما . وأذاعوا التوزيع .. وكيف ان الجنود السعوديين سيكونون تحت قيادة مصر .. وان مصر ستساهم بسلاح الطيران ..
واخبرنى رئيس البلدية ان الملك عبد الله اخبره بصراحة أنه لايمكن أن يدخل جندى مادام فى فلسطين جندى بريطانى واحد . وعلى ذلك فهم ينتظرون يوم ١٥ مايو وهو يوم الجلاء البريطانى المزعوم .
وكل شىء ممكن أن يحدث قبل ١٥ مايو وسادتنا العرب منتظرون
انقطع النور الان ..
والهبت شمعة وعدت الى الكتابة .
مازالت الحكومات العربية خائفة .
واذا عالج الجبان امره بجبنه فقد انتحر الجبان .
وهى الغريقة .. ففيم خوفها البلل .
ان المجاهد فى سبيل كرامته لا يجوز أن يهتم لوجود الانجليز أو عدم وجودهم . ولو غامرت الدول العربية وخاضت غمار حرب تحريرية لكان ذلك كسبا عظيما للقضية العربية والمستقبل العربى .
ليس لدى الدول العربية ما تخشاه ..

لانه ليس لدى الدول العربية ما تخسره .
اتخشى على الاستقلال الغالى ان يغتصب ؟
ام تخشى على الامبراطوريات الواسعة ان تنتقص ؟
ام تخشى على المستوى المعيشى والاقتصادى ان ينخفض ؟

سبحان الله ..
انا الغريق فما خوفى من البلل ؟!
والوقاية خير من العلاج .

ولو قامت على حدود مصر دولة معادية يوما من الايام لتكلفت مصر جيشا طائلا يرابط عند الحدود . فماذا لو اختصرنا الطريق واستأصلنا شأفة هذا العدو من الان . ومن قبل أن يستفحل أمره ويستشرى خطره !

ان الدفاع عن فلسطين دفاع عن كل بلد عربى ولكن العرب مع الاسف قصار النظر يعميهم اليوم عن الغد . ومطامع الصهيونيين لا تقف عند فلسطين . وانما هم يطمعون فى ملك سليمان . ومازال سكانه غافلين ! فى فلسطين يتقرر مستقبل العالم العربى والاسلامى لمدة ثلاثمائة عام على الاقل من الزمان . ومازالت الحكومات العربية تتناقش هل تزيد الميزانية الفا أو تنقص الفا .

فلسطين اندلس ثانية . ويا ضيعة العرب اذا ضيعوا الاخرى كما ضيعوا الاولى .

وليس الوضع السياسى للقضية سهلا او بسيطا ، ولكن لكل وجه منها شكلا .. ولكل فريق فيها وجهة ، الانجليز على العهد بهم ..

وليس يهمنى أن أعلق على وعدهم بالجلاء يوم ١٥ مايو . وستكشف الايام عن صحة هذا أو كذبه . كان

هنا بالامس سرجنت انجليزى اكد لى ان الجلاء سيتم فى موعده وان فرقته ذاهبة الى مصر ..

واذن فان انجليزا جددا سيفدون الى مصر . وبارك الله فى المعاهدات .. وحيا الله القضية المصرية .

ولكنى علمت ان فرقة اخرى عادت من قبرص الى فلسطين . ولا يعلم الغيب الا الله .

ولكنهم الان يعملون ببراعة على أن يضرب العرب اليهود ويضرب اليهود العرب .

انهم يجلون عن مكان .. فيحتل المكان فريق .. ويهاجمه الفريق الاخر . وتسقط القتلى والجرحى وفى آخر الامر يعود الانجليز مرة ثانية .

والمجازر تقوم فى فلسطين على هذه الصورة . تدبير محكم . وايحاء للرأى العام الدولى بأن وجود الانجليز فى مكان يمنع القتال فيه . وخروجهم منه بسبب القتال . وأشك كثيرا فى صدق انجلترا اذ تعد بالجلاء التام بعد اثنى عشر يوما .

ثم اليهود . والحديث عنهم قليل . لاننى لم اختلط باحد منهم حتى الان .

هم من الوجهة الانسانية قوم سافلون . يتحلون بالجبن الزائد والغدر والخسة . ولا يتورعون عن ضرب النساء والاطفال ونسف البيوت على من فيها .

ولو جابههم العرب بعشر عدتهم وعددهم لطردهم العرب فى أسبوع .

عندنا ضابط مريض اخبرنى الشيخ حسن سلامة انه غنم من اليهود فى احدى المعارك أربعين مسدسا ولم يكن معه ذخيرة . واعلم انهم يفرون فرار الجبان لو

تصدت لهم قلة من العرب المسلحين المنظمين .
وفى الرملة مصفحة غنمها منهم العرب .. وكثير من سلاح العرب غنائم من اليهود .
ولكنهم يدرعون بالمال والنظام . وهذا هو الذى مكن لهم ومد لهم الاسباب .
ولابد أنهم يعتمدون على مساعدات خارجية كبيرة .
ان قضية فلسطين تعالج فى الجامعة العربية ولكن بدون اخلاص .
وليس العجز النقيصة التى الصقها بالدول العربية .. فهى قادرة ان شاءت . وهى قادرة ان اخلصت .
ان فلسطين الان ضحية الدول العربية .
ان أهل فلسطين كانوا يعتمدون اعتمـــادا كليا على عون الدول العربية ..
ولذلك فان عرب فلسطين رفضوا التقســيم باباء وشمم . ووقفوا الموقف الكريم لانهم كانوا يتوسمون فى الدول العربية العون الكريم .
ثم فات دور الكلام وجاء دور العمل .
وفتح باب الجهاد فدخل عرب فلسطين .. ثم وجدوا انفسهم وحدهم فى الميدان .
ان مصر فتحت اكتتابا بمائة الف جنيه لايواء اللاجئين من فلسطين . ولو أنها فتحت اكتتابا بعشرة مدافع لما كان هناك لاجئون من فلسطين !
اتوقع أن يدخل جيش الملك عبد الله فلسطين بعد ١٥ مايو . ولست أدرى اتدخل جيوش عربية أخـرى أم لا .
واتوقع ان تجد مصر حجة لئلا يدخل جيشها . فان

الانجليز لا يريدون هذا . الا اذا حدث اتفاق .

ان للملك عبد الله عصبية هنا . له انصار وللمفتي انصار وهم يصطدمون ويتشاهرون بالسلاح حتى في المسجد .

سمعت خطيب الجمعة الماضية يقول : اللهم انصر ملكنا الملك عبد الله .

وهو على سنة الدول العربية جميعا في الا تدخل الا بعد ١٥ مايو . يوم الجلاء البريطاني الموعود .

ولتجدن الدول العربية نفسها مضطرة الى ان يأخذ الملك عبد الله فلسطين .. فذلك على كل حال خير من ان ياخذها اليهود .

ثم سيعلن الملك عبد الله .. بعد انتصاره في معركة او اثنتين .. هدنة بينه وبين اليهود .

وسينادي بنفسه ملكا على فلسطين . وسيعلن انها مملكة عربية . وسيعطي شبه استقلال ذاتي لليهود في حدود التقسيم الذي قررته هيئة الامم . وكل هزيمة عربية هي الحاح عليه بالدخول(١) .

أما الشعب فمسكين . جوهره متين ولكن انتابته الظروف السيئة . القيادات الموزعة . والفقر . والخيانة في الرءوس والاذناب . والدول العربية . سمعت ان واحدا من الاعيان كان يهرب المواشي لليهود .

لقيت الدكتور هيكل رئيس بلدية يافا .. قابلته عند رئيس بلدية الرملة . هو الاخر تارك مدينته تنعى من بناها . وذاهب الى عمان . انه قد رحل .

لست تعلم لمن السلطة . هناك البلدية وهناك القيادة

(١) كان هذا التصور لمجرى الاحداث شائعا في ذلك الحين .

وهناك اللجنة القومية . وبينها تنافس وليست هناك خطط تدبر لادارة المعارك . كل رجل زاده الله بسطة فى الجثة ويستطيع ان يجمع اربعين او خمسين رجلا يسمى نفسه قائدا ويعمل بوحى من تفكيره .

وما أنكر أن منهم رجالا وابطالا .

ولست أنسى ذلك المجاهد الذىاستخرجنا له رصاصة من بين عضلات فخذه دون أن نستعجل التخدير . ولم يفه الرجل بصوت . وكنت أذبح وأجرح الجلد والعضل وادخل أصابعى وامرته الا يقبض عضلاته ففعل ما أمر به . كل هذا وهو صامت صابر . نعم . لست أنساه .

ان صور البطولة كثيرة . نراها ونسمع عنها .

ويشهد الله أن عرب فلسطين فى الموقعة أهل جراة .

ورحم الله الضابط المصرى كمال . الشهيد المجيد . سمعته فخر لمصر والمصريين . ومن مفاخر الرجال هنا انهم عملوا تحت قيادته .

اعتصم اليهود بحزبون وقطعوا منها الطريق . وهجمت قوات العرب عليها عشرات المرات فكانت ترد فى كل مرة . حتى نسفها كمال نسفا مع نحو ثلاثين من الرجال كان القائد وكان القدوة . وكان شجاعا باسلا .

شجاعا . باسلا . رحمة الله عليه .

الا الجند القادمة ... « من احدى الدول العربية » .

اسوا هدية ارسلتها الدول العربية الى فلسطين . مهدوا لهزيمة يافا بتخاذلهم وتذمرهم بشأن الغذاء والمرتب والسجائر .

وعند فرارهم من يافا لم ينسوا ان ينهبوا المدينة بيوتها وحوانيتها .. ومتاعها وسلاحها .. بل كانوا ينهبون قوافل المهاجرين . وياويل العرب من العرب .

هكذا كانت الحال ..
والحمد لله على كل حال .

## يافا

ولن اكتب التاريخ .. لانى ذهبت الى يافا عددا متتابعا
من المرات .

لقد مكثت اربعة ايام متتالية اذهب الى يافا مرة او
مرتين كل يوم .
طريق جميل . بين جانبين من الجمال المطلق . لك
الله يافلسطين الخضراء !
بل انت قطعة من الجنة يافلسطين الخضراء .
صفحة منبسطة من الخضرة القاتمة والفاتحة ..
وثمار البرتقال ترصع اشجاره كانها كرات الذهب .
جمال ما بعده من جمال .

ثم ما هذا ؟
خرائب وانقاض على جانبي الطريق . تشـــهد ان
حياة كانت هناك فى وقت من الاوقات . هدم بعضها العرب
لان اليهود كانوا يعتصمون بها ويقطعون الطريق .
ودكت بعضها مدفعية اليهود .
هذه حزبون ..
وتذكرت كمالا المصرى بطل حزبون .
وهؤلاء هم اليهود . نعم . هم اليهود واقفون على
ابواب مستعمراتهم .

بلغنا يافا . فرايت . ويا هول ما رايت ! ان يافا ذكرتنى بمدائن الحفريات .

أشبه المدن بالاسكندرية ..

فمن ذا الذى يتخيل مدينة كالاسكندرية وقد خلت من سكانها تماما أو قريبا من التمام ؟

لم يطرأ عليها تهديم أو تدمير يذكر . ولكنها الروح المعنوية الخفيضة لم تستطع أن تصمد أمام مدفعية آليهود ومدفعية اليهود صوت أكثر منها فعلا .. ولكن القطط تفزعها البسبسة .

لم أجد فى يافا أكثر من عشرات من الناس .

ذهبنا لننقل مرضى يافا الى مستشفانا . لآن يافا رحل عنها الممرضون والممرضات .. ورحل عنها سائر الناس مما سد أبواب الحياة فيها على الذين فيها .

وكنا نرى البؤس والعذاب المقيم مقيما فى يافا .

رأينا الرجل الذى ظل يدافع عن يافا بعد أن انفض عنه الرفاق بين قتيل وهارب وجريح .

نعم انه الرجل . ولكنه رجل بلا رجل . قعيد عاجز . جنت عليه الحرب .

وشاهدت رجلا كهلا بلا رجلين .. ملقى على الارض فى فناء مستشفى الصليب والهلال . لقد طلبوا الى أن آخذه لاضعه فى الطريق العام بالرملة .

ولم يكن ذلك أبشع ما رأيت ..

ان القطط والكلاب فى المدينة ساعيـــة طول الوقت تفتش عن رزق وليس هناك رزق ..

وما راعنى الا كلب يعرق عظمة .. ولكنها كانت عظمة ساعد آدمى !!

واعطتنا المستشفيات مرضاها .. من مجاريح الحرب
ومنكوبيها . قد اتسخت جراحهم فاصبحت تؤذى الانف
على قدر ما تؤذى العين او أكثر .
واخذنا كثيرا من معدات المستشفيات ..
ولن أنسى مستشفى الدجانى بيافا .
طلب الى حارس الحديقة أن آخذه معى الى الرمل
وعرض على أن آخذ ما يلزمنى من المستشفى .. الذ
ترك له أصحابها مفاتيحها وهاجروا الى مصر .
ودخلت المستشفى ..
وا أسفا على العمار الجميل حينمـــا يمسى خرا
بلقعا . مستشفى فى غاية الجمال والاناقة والاستعدا
وكنت ابكى أو أكاد وأنا أنقل ما أشاء وما أستطيع من
المستشفى .
وأتتنا ممرضة حسناء كانت تعمل بالمســـتشفى
زرقاء العين صبيحة الوجه مليحة التقاطيع جميلة الجمال
جله . لطيفة اللطف أكبره .. بدا جمالها لى هى الاخرى
كالبناء المهجور .
ولولا أننى سقت فريد أفندى سوقا وأمسكت بزمامه
امساكا لا أفلته لراح منى وذاب .
وراح ابو على حارس المستشفى يطوف بى الحديقة
التى أسسها على طراز حديقة الاندلس . ورد آية
الحسن . واشكال والوان ورونق وبهاء . ان أبا على
مصرى من السيدة زينب أتى الى فلسطين منذ اثنتى
عشرة سنة . وهو بستانى اشترك فى زرع حديقةالاندلس
.. وطاف بنا على ما غرست يداه .. وما أبهى و
أنضر ..

ولـكن ..

كل ذلك مصيره للذبول . والذبول السريع ..

وكان الرجل يبكى أزهاره كما يبكى أولاده .

ورحنا نجوب المستشفى الثكلى .. استعداد رائع . ومخازن وذخائر . اخذنا غرفة عمليات . واخذنا من كل شيء شيئا . كل شيء غدا بلا صاحب . انها الحرب . وكلها عظات وعبر .

ويح لك يا يافا . الخاوية .

تذرع الشوارع فما تلقى الواحد من الناس الا مصادفة اية مصادفة .

مدينة بلا سكان . وكأنها مقبرة فقدت موتاها وان لم تفقد من معانى الموت شيئا ..

مدينة من الاحجار . كانت فيها الحياة حياة فى يوم من الايام . وانطفأت منها الحياة كما ينطفىء النور .

وهذه مآذن يافا .. تطل على ما حولها .

ان المآذن فى يافا كانت تبدو كشواهد القبور . ومع ذلك .. فمن هذه المآذن انبعث الصوت الحي الوحيد الذى سمعته فى يافا .

لقد كان آخر صوت سمعته في يافا آتيا من احدى هذه المآذن ..

وكان يقول : الله اكبر الله اكبر .

ولكن الله سلم .

فى اول مرة ذهبت الى يافا .. بينما كنت راجعا مع فريد افندي والسيارة تنهب بنا الارض نهبا .. وكانت تسبقنا سيارتان من سيارات الجيش الانجليزى . وفجاة وقفت السيارتان واشارتا لنا بالوقوف . ان

السيارة الاولى كان فيها جهاز لكشف الالغام ..
فاكتشفت لغما فى الطريق .

وانتظرنا حتى رفعوا اللغم فمضينا ..

والحمد لله على كل حال .

ومن يدرى كيف كان يكون الامر لو لم يجر الامر على الذى جرى . ولكن المكتوب مكتوب كيفما دار الامر .

كنت مرة أسير فى شارع المنيرة بالقاهرة . وكانت حداة تحلق فى الهواء . وكانت سيارة تجرى على الارض . ولعل الحداة أبصرت هدفا فانحدرت اليه .

وجعل القدر منية المتمنى فى أمنيته . لقد أخذت الحداة تهبط وتهبط حتى مرت عليها عجلة السيارة فجعلتها جثة لا حياة فيها ؟

افبعد أن تقتل السيارة العابرة الحداة الطائرة أفكر فى الحياة والموت ؟! ..

بل الامر لله من قبل ومن بعد .

وانما نحن على جزيرة من التخيير فى بحر من التسيير.

وترددت على يافا مرات ومرات .

فى كل مرة نزيد أبا على مدحا فيزيدنا كشفا لنا عن كنوزه . من عتاد ودواء وطعام .

وذهبنا للمستشفى الحكومى ومستشفى الصليب والهلال . انهما كانتا تصفيان المرضى والادوات قسمة بيننا وبين المستشفى الفرنسى بيافا .

وذهبت للمستشفى الفرنسى وقابلت رئيسته وهى راهبة عجوز ولكنها جميلة جمالا صافيا . راهبة راهبة التقاطيع .

وكان التخاطب بيننا باللغة الفرنسية .. اى والله .

وافهمتها وافهمتنى . وان كنت لاحظت عليها صفة النساء من الكلام السريع السريع الكثير الكثير .

سلام على يافا . ولا سلام على الجبناء .

سلام على البيوت والطرقات . وعلى الكلاب والقطط . أما الناس .. فقد رحلوا فلم أجدهم(١) تركك أهلك يا يافا والامر لله .

هو يوم من قبله أمس ومن بعده غد . وعسى الله ان يغفر الماضى ويصلح الاتى ان شاء الله .

وبعد فلقد بدأت المعيشة تجف فى المستشفى . لقد انقطعت المياه . وصارت تأتينا سيارة بالماء كل يوم . وترتب على ذلك ماترتب من عسر أداء المرافق اليومية والاستحمام بل والعمليات فى أحيان كثيرة .

اخشوشنوا . فان النعمة قد زالت .

وعلينا أن نجابه الحياة كيفما كانت الحياة .

وجابهناها كيفما كانت .

الماء مقطوع . والنور مضطرب .

وما زلنا سعداء .

والخطر اليهودى يقترب منا يوما بعد يوم .

فى كل يوم تذهب سيارة الاسعاف الى موقعة من المواقع فتأتى بالجرحى . وما يصبح اليوم التالى الا والواقعة قد غنمها اليهود .

ولا عتب على العرب .

والعتب على الجامعة العربية .

(١) من الثابت انهم كانوا يتصورون انهم سيعودون سريعا بعد دخول جيوش الدول العربية ولم يكن فى ايديهم سلاح ساعدهم على الصمود حتى تنجدهم تلك الجيوش التى خذلتهم فى عام ١٩٤٨ المشئوم .

مظلوم وظالم ..

ويتركون المظلوم للظالم يخشون شبح الانجليز .

انهم ينتظرون ١٥ مايو . كأنما يقولون للضارب استمر فى ضربك الى حين ونحن متفرجون مع الانجليز حتى ينتهى الانتداب .

منذ ايام دارت معـــــركة على بعد ثلاثين مترا عن المستشفى او اقل .

اتت مصفحة يهودية تحمل ناسا لبث الالغـــام .. وامتلأ الجو بالرصاص بينهم وبين الحراس .

وكانت الرصاصات تئز قريبا منا حتى لنحنى لهـــا رءوسنا لدى سماع أزيزها .

وتمكن الحرس من حرق المصفحة اليهودية .. وفر من فيها من باب فى أرض المصفحة ..

وانجلت المعركة عن مقتـــل فتاة يهودية كانت مع المهاجمين . ولكن طلع الصبح واذا بجثة الفتاة قـــد اختفت . لقد سرقها اليهود . وما أدهى اليهود .

# الله أكبر

واليوم هو الثانى عشر من شهر أيار .. أعنى مايو !
ويبدو أن دور العسر يوشك أن يتبعه يسر .
ومعركة باب الواد على أشدها بين العرب واليهود .
وهى من معارك فلسطين الحاسمة ..
وهى أول نصر نسمع به منذ قدمنا فلسطين .
فلسطين كلها مرهفة الاذان والخواطر والقلوب .
كنا اليوم فى القدس . ومررنا برام الله فاذا كبار القواد كلهم فى المعركة .
جموع الناس فى الطرقات من القدس حتى الرملة يستوقفون سيارتنا ليسألونا الانباء .
والدعوات تتصاعد الى السماء فلا يحجبها عن عرش الله حجاب .
وسحقت قوات القاوقجى جيش اليهود . وقتل قائد الهاجاناه وغنمت أوراقه الشخصية ومنظاره . وكان فى الغنائم ست مصفحات بأجهزتها اللاسلكية وجهازا لاسكى للمشاة وذخائر ومؤن عديدة .
ووقع من اليهود مئات من القتلى ومئات من الأسرى.
واذن فان السواد الدامس الذى كنا نعيش فيه قد اخذ يتبدد شيئا فشيئا .
ثم هاهى ذى الدول العربية تعلن عن التقدم بالمساعدة العسكرية الفعالة بمجرد انتهاء الانتداب البريطانى فى منتصف هذا الشهر .

ان القيادة العسكرية للملك عبد الله تعاونه هيئـــة اركان حرب مصرية . وليس يهمنى الان الا كسر شوكة اليهود ..

انها الان الساعة الحادية عشرة . والمساء جميل .. اما انا فجالس الى النضـد أكتب . وأما خطاب فعلى سريره جالس يكتب هو الاخر .

كنت قد كتبت له رسالة وضعتها على فراشه . ورد على الرسالة بأخت لها . وما زلنا نتبادل الاخوات الى الان .

وليست النفس هنا بمنأى عن سبحاتها وتأملاتها فى أمور تجد عليها فتجد فيها الحلاوة والمرارة .

ونفسى الان فيها مافيها من مرارة التجاوب مع الناس فيما يثقل كاهلهم من هموم وأشجان .

وتخزينى الان مظالم جرها ناس على ناس . وأعباء كتب على ناس أن يحملوها .

ان قانون القضاء والقدر قـــد يبدو جائرا فى بعض الاحيان . ولكننى أومن بأن فيه سرا من العدل لا يدرك كنهه غير الله .

اننى آمنت بالقدر خيره وشره . والامر لله يصرفه كيف يشاء .

ولكن عربة الاسعاف رقم ٦ التابعة لنا خرجت ظهر الامس ولم تعد حتى الان .

ومر مساء ومساء غيره ولم تعد العربة .

وذهبت مع فهيم افندى الساعة السادسة من صباح اليوم ١٣/٥ قاصدين المعارك فى يبنا وفى باب الواد .

ولكن العرب استوقفونا بالقرب من باب الواد . ان الطريق غير أمين . ها هما سيارتا نقل كبيرتان لليهود

احرقهما العرب امس حينما هاجم اليهود قريتهم . ومازال الدخان يتصاعد منهما .

وشهدنا الدور الاول من معركة جديدة . والعرب يقسمون أنفسهم طوابير صغيرة تسير من كل اتجاه تحيط باليهود .. رجال بواسل يمشون فى خطوات بطيئة ولكنها ثابتة . من يدرى .. لعلها خطوات الى الموت .

ومررنا برجال الجيش العربى . ان اليهود ضربوا معسكرهم بالمدافع ليل أمس .

وقصدنا مدينة رام الله . وأبلغنا القيادة هناك بالامر . كما ذهبنا لمحطة الاذاعة وأذيع النبأ من نشرة أخبار محطة جيش الانقاذ ومحطة القدس .

ثم توجهنا الى القدس . وكانت هذه هى المرة الثالثة التى أذهب فيها للقدس . وكانت المفوضية المصرية مقفلة بالاقفال . رحل الجميع الى عمان .

وقابلت رئيس الصليب الاحمر . وكان مقره فى دار جمعية الشبان المسيحية . دار كبيرة فى منتهى الفخامة .. مبنية على طراز المعابد ، وفيها أقبية ونقوش بديعة.

وعدت متعبا متعبا متعبا . ان طريق القدس شاقة مجهدة . وعدت براسى يدور ويدوى فلم استطع الا أن أذهب لغرفتى لانام . ووجدت الزميل « خطاب » فى فراشه يشكو اجهادا ودوخانا . وأعطيته قرص مورفين اتروبين . ونمت . واستيقظت بعد حوالى ساعتين على أصوات خافتة . وظللت كما انا لا أتحرك . وسمعت مفاكهة بين خطاب والحكيمة التى أحضرها الدكتور أحمد الملط معه من مصر . وحديثا لا محل له فى هذه المذكرات .

وحزنت حزنا شديدا . وضاقت على الارض بما
رحبت . ليست جميلة كل الجمال ولا بعضه . كبيرة
السن . ثقيلة الوزن . كل ما كان يعجبنى فيها
طيبتها .
ولكن « خطاب » فيه هذه الصفة العجيبة
الانجذاب الى المرأة . وهو فيما أعلم عفيف ولكننى أعيب
عليه انه خفيف خفيف فى استجابته لهذه الجاذبية
لا يقيم لنفسه حدودا واضحة ومعالم قوية .. ولكنه ا
وجدت المرأة ذاب وتفانى .
على كل حال ...
حسبى الله ونعم الوكيل . ولاعتزلن الناس برهم
وفاجرهم .
وكان غدائى لقيمات .. قمت بعدهن فنمت ساعتين
اخريين .
وليس ذلك كل ما يحزبنى فى ذلك المضمار ..
ولكن هناك غير ذلك . وغير خطاب . ولست أدرى
اأجد له مجالا هنا أم لا .
ومع ذلك .. فلخطاب فى قلبى حب راسخ عاصف
ومكانة يقل ان ينالها لدى من الناس أحد ..
اما الحكيمة فلقد تبينت فيما بعد طيبتها . وصارت
لنا أختا كبيرة بعد أن مرت بنا الشدائد والاهوال فرفعت
الحجب من بين النفوس .
ولا يعنى ذلك شذوذها عن المعروف والمألوف من
صفات النساء .

# أسر خطاب

هذا اسوأ عنوان يمكن ان يكتب فى هذه الصفحات .
وهو اكبر صدمة جدية أصابتني خلال هذه الرحلة التى
مارست فيها شظف العيش وقسوة الحرب .

ولقد بينت فيما سبق أن سيارتنا قد ذهبت فلم
تات .

فلما جاء يوم ١٣ مايو تلقينا نبأ بأن السيارة فى قرية
يبنا وانها قد أصابها عطب .

وفرحنا فرحا نسينا معه أن نأخذ الحيطة وندرع
بالحذر ونمسك بالامر من اطرافه .

وكان الوقت أصيلا فرايت أن ارجىء الذهاب مع
فهيم لاستحضار العربة من يبنا الى الصباح الباكر .

وجاء الصباح الباكر . وكنت مرتديا ملابسى الطبية
فى الساعة السادسة صباحا ..

ولاول مرة منذ عرفت خطابا يفتح جفنيه فى الساعة
السادسة صباحا . ويقول لى وهو يقاهر النوم بعينه
وصوته : الى اين انت ذاهب مبكرا هكذا ..

فاقول لاستحضار العربة .

وكنت اقوم باغلب المشاوير فكان لى بجانب نصيبى
من الاجهاد نصيبى من الترفيه .

وقال خطاب : اانت مسرور بكثرة مشاويرك ؟

قلت لا . قال اتجد فيها متعة ؟ قلت بل اقوم بها
اداء لواجب شاق .

قال اذن لا يحزنك ان اذهب مكانك هذه المرة .
فقلت البس ثيابك .. واستأذنا الدكتور احمد الملط المدير .
وذهب خطاب مكانى هذه المرة . ذهب مكانى الى الاسر .
ولم يطل تعذيبنا بغيابهم هذه المرة .
كنت فى حجرتى فى العصر . ومعى الدكتور احمد وفريد افندى معاون المستشفى . وكنا نحقق فى موضوع ما . ثم دخل ممرض مع شرطى من حرس المستشفى يفضيان الينا بأن اشارة تليفونية وردت من يبنا تقول ان اليهود قد أسروا السيارة وركابها أمام مستعمرة القطرة . وكانت السيارة ترفع علم الهلال الاحمر فمزقه اليهود . وأخذوا الجميع .
وهرعت الى صلاة العصر اختبىء من هول المفاجأة .
وكان هذا فى يوم ١٤ مايو . وبعد سبع ساعات ينتهى الانتداب البريطانى فتنتهى حماية الجيش للطرق .
ولا يصبح طريق فلسطين مأمونا .
وبعد سبع ساعات ودقيقة واحدة تصبح مصر دولة محاربة .
ظرف وعر . وحظ سىء . ولكن من يدرى . لعل فى مكامن هذا لطف الله .
وأسرعت الى البلدية اتصل هنا وهناك دون شفاء ولا دواء .
وكان الامر امر من ان يبلع واجل من ان يأتى عليه الصبر . ونويت ان لم يعد خطاب ان اترك السلك الطبى وانضم الى تشكيلة عسكرية حرة تشتغل بغزو اليهود .

ورفض خاطرى بتاتا فكرة ان اعود الى مصر بدون خطاب بعد كل هذه الصحبة الوثيقة التي ضربت أطنابها بيننا فى الدمرداش وغير الدمرداش . وفى فلسطين وغير فلسطين .

ولم اطق ان ابيت فى غرفتنا وحدى هذه الليلة

ولم اطق أن انام مع احد الا نفسي وصورة خطاب .

واخذت فراشا الى غرفة المائدة وقضيت ليلة لم احس لها طولا ولا قصرا . وحملت رأسي على كفى وذهبت فى التفكير حتى طلع الصبح .

فلما طلع الصبح استدعيت سيارة الاسعاف الخاصة ببلدية الرملة . وهى عربة الاسعاف الوحيدة الباقية فى المنطقة كلها . واخذت زادى من البنزين ورحت منتويا الذهاب الى رام الله ثم القدس .

ولم تكن الطريق مثلما اعتدت أن تكون من قبل . كانت الرملة محاطة باليهود من جميع نواحيها الا طريقا واحدة هى طريق اللد . وذهبت من اللد الى بيت نبالا حيث يعسكر فريق من جيش الملك عبد الله

وكان يسبقنا فى سيارة صغيرة رئيس البلدية ذاهبا الى رام الله يطلب النجدة من القاوقجى .

وسرنا فى طرق ما انزل الله بها من سلطان نتحاشي المرور فى مناطق يهودية ، حتى بلغنا قرية عبود .

ولكن وجدنا قرية عبود قد « سكرت » الطريق كما يقولون . والطريق شريط بين جبلين وعرين ، وقد أغلقوه بسبعة حواجز منيعة من الاحجار كل حجر منها بحجم المارد . ووقفنا واجمين أمام هذا السد .. ثم وجدنا أن نكون عمليين فشرعنا فى ازالة قدر صراط يكفى لمرور السيارة من كل حاجز .

خلعت سترتى . ولم نجد فى المنطقة كلها أحدا نتفاهم معه . وانهمكنا فى العمل . وما وافينا السد الرابع حتى دوت فى الفضاء طلقة نارية ، وأزت الرصاصة جوار آذاننا فوقفنا من جديد واجمين نتلفت هنا وهناك فى الجبل لنشهد من أين جاءت هذه الهدية .

ولبثنا حينا لا نرى أحدا ثم جاء عرب القرية ثائرين مستنكرين . دارت مناقشة بينهم وبين الرجال فتركتهم الى سيارتى حزينا على المجهود الضائع ضيقا بهذه الامخاخ الضيقة . ويئس رئيس البلدية فرجع بسيارته ..

وكدت ارجع لولا أن طاف بذهنى أن أقابل زعيم القرية . وعرضوا على القوم أن الطبيب المصرى يود مقابلة الزعيم . اخذتنى سيارة تاكسى صغيرة خاصة بالبلد . وقطعت الى القرية نحو ثلاثة كيلومترات . وسرت والقوم يصيحون « والله لو اجا المسيح مانفتح الطريق » .

وذهبت الى مخيم الزعامة . وكله مقاعد كالتى نشاهدها فى دكاكين صانعى الاحذية فى مصر . وأتوا بقهوة . ثم جاء الزعيم . رجل عربى مهيب مهيب مهيب .

وبعد التحية والسلام قدمت نفسى وقلت انني طبيب مصرى . واحببت ان أثبت شخصيتى فأخرجت الباسبورت وقلت « وهذه هويتى » .

وما راعنى الا رد الزعيم فى صوت قوى جهورى فخم : « محسوبك مابيعرف يقرا » .

ولم يكن من اللائق ان أنفجر فى الضحك . فلم افعل . ان الزعامات هنا أيضا زعامات أمية .

وطفقت اروى له باللهجة الفلسطينية كيف تركنا اهلنا وبلادنا والنعيم فى مصر من اجل أن نساعد المناضلين هنا . وكيف نكد ونجد من اجلهم . حتى اسر اليهود طبيبا

ومساعديه . ولابد ان اكون فى القدس اليوم . وكنت مؤثرا . أو لابد اننى كنت كذلك . لان الزعيم لان ورقت حواشيه . وضرب كفا بكف وقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وتركت تأثره يختمر فى راسه . فصاح من تلقاء نفسه . وأحضر لوريا كبيرا حشده ناسا وعدنا للقوم موكبا مظفرا . وفتح لنا الطريق . وسرنا بعد أن كتبت ورقة للقاوقجى أبرر فيه لهم الامر .

ووصلنا رام الله فى الساعة الثالثة . وكتبت رسالة للدكتور الدجانى بالقدس . ان القدس كانت امنع من عقاب الجو . أن القدس كانت مثل ستالينجراد ابان الحرب . لذلك تركت الرسالة مع الدكتور غنام برام الله .

واذعت النبأ بالاذاعة . وابلغت قيادة جيش الانقاذ . ثم عدت عن طريق طويلة . كان على أن اذهب من رام الله الى نابلس الى طولكرم الى بيت نبالا الى اللد .

وفى مستشفى طولكرم قابلت الدكتور أمين رويحة ومدلول بك قائد المنطقة وغيرهم . وكنت متعبا تعبا يدور له راسى .

ثم واصلت السفر فوصلت الرملة فى العاشرة مساء .

ولما كان مرور السيارات ممنوعا بعد السادسة ، ولما كانت سيارة الاسعاف لا تستطيع كشف شخصيتها بالليل ، فلقد كان من نصيبى أن أقترب من الموت مرة أخرى .. فان الحراس امام احدى القرى اطلقوا طلقا ناريا اخترق مشمع السيارة من فوق رأسى . ولكن العمر واحد والمكتوب مكتوب . ووقفت .. وأفهمتهم . ومضيت .

وفى هذا المشوار شهدت ضرب مستعمرة يهودية بمدافع الهاون التي نصبها جنود جيش الانقاذ بقيادة ضابط مصرى لم أعرف شخصيته ولكنه يعرفنى . جاء مسلحا وما كاد يقول لى ان مدفعيته ستضرب اليهود حتى انطلقت القذيفة الاولى . وأجاب اليهود .. وفى العودة فى المساء علمت أنه لم تقع خسائر تذكر بين العرب وكان ذلك جوار قرية قلندية .

وكنت قد قلت للدكتور أحمد اننى اذا لم أعد حتى السادسة مساء فلابد أن أكون فى الاسر . لذلك كان همهم كبيرا حتى حضرت فى العاشرة فوجدوا من بعد العسر يسرا .. وان مع العسر يسرا .

ثم كانت معركة الرملة . ولابد ان يرد ذكرها فيما بعد . وانشغلنا بها أى شغل . وسخرنا من اجلها جهودنا بالليل والنهار . وأبلينا فيها البلاء الوافى .

ولكن كنت دائما على الاهبة من جهة خطاب . وكانت قدمى باستمرار تأكلنى على خطوات جديدة أبذلها فى البحث عن خطاب .

وفى أول يوم خف علينا العمل فيه استقللت سيارة الاسعاف متجها الى نابلس لمقابلة السيد جان كورفوازييه مندوب الصليب الاحمر ، وكنا قد التقينا مرة من قبل فى رام الله .

ونابلس مدينة كبيرة بالنسبة لمدن فلسطين صغيرة جدا بالنسبة لمدن مصر . غير حديثة الطراز . مبنية على جبل حتى لتستطيع بنظرة واحدة أن ترى المدينة لا أقول من أولها لاخرها ولكن من اعلاها لاسفلها . فهى تبدو مثل مدرج الدرس . والبيوت على طراز خاص غير هذا الذى نراه فى مصر .

وبعد استطلام قليل ذهبت الى الدكتور كورفوازييه بدير اللاتين .

والدير مكان قديم ولكنه جميل . ليس به فخامة فى البناء ولا فى الاثاث ولكنك تشعر فيه بالهدوء والجمال.

وأوصلونى الى غرفة الدكتور . وكان راقدا على سرير صغير . وكان على منضدة فى الغرفة نحو خمسين زجاجة من الوسكى . واستقبلنى كورفوازييه استقبالا حارا . واعتذرت من عدم قبول الكأس والسيجارة . ثم قمنا الى مكتبه بالطابق الارضى لنبحث الامر .

وقدمت لنا شراب الليمون اخت شابة راهبة فى وجهها صفاء وحنان . وكان المسيو كورفوازييه فى حالة ثمل خفيف بادىء الامر . ولكن استطعنا أن نتحدث وأن نتفاهم . واستاء الرجل مما فعل اليهود . وكان متحمسا لنا كل الحماس . وروى لى الكثير مما تقض اليهود به المواثيق . والمسيو كورفوازييه سويسرى يتكلم الفرنسية كما اتكلم الانجليزية ، ويتكلم الانجليزية كما اتكلم الفرنسية . وكان حديثنا بهما معا ولكن لم يصعب التفاهم أبدا .

وهو رجل فى منتصف الحياة .. فارع الطول بشكل عجيب .. شديد النحافة .. نشيط . حار الطبع عكس الانجليز . ولذلك فقد دعانى للغداء وكان طول الوقت يعزم على بالمزيد . وقمنا للطعام وجاء راهب المدير وهو عجوز أحمر الوجه . خلع قبعته وتلا صلواته فى عجلة ظاهرة مضحكة .. ويبدو أن الرهبان عندهم كالفقهاء عندنا والله أعلم .

وتدبرنا ما يفعل وما افعل . ثم عدت ثانية الى الرملة فوصلتها قبيل السادسة .

وتلت ذلك فترة اخرى من الاهوال . ان معركة

الرملة قد علمتنا أن الأسر هين بالقياس الى غيره .
فنذرت للرحمن عشرة جنيهات اذا نجا خطــاب .
وطفقت أعمل حتى أتانا كاظم جريحا فى المستشفى .
وهو الذى اقترح فكرة الذهاب الى عمان ..
وكان على أن أتغلب على معارضة الدكتور أحمد للفكرة ثم على رغبته فى التأجيل ، ثم على معارضة رئيس البلدية فى اعارتى سيارة الاسعاف . وتم ذلك بعون الله .
فلمـــا تم ذلك بعون الله حلقت لحيتي وكنت قد اطلقتها .
ثم أطلق أفراد البعثة لحاهم على اثرى وكان يستحون أن يحلقوا وأنا تارك لحيتى من الحزن .
وكاظم كالدكتور الصدر . وقد صحبنا الى شرق الاردن . وسوينا لانفسنا كل شىء . وســـوينا له أن توسطنا فى سفره لمصر بعد أن رجا والحف . وحتى الان لم أدر أسافر أم لا . تركناه عند أقاربه فى بلدة الصلت .
ومررنا على قيادة الجيش الاردنى فى رام الله . ودعونا للغداء مع الامير نايف بالبلدية فاعتذرنا لان الوقت لا يتسع .
ومن رام الله الى بلدة اريحية اخترقنا طريقا يالهــا من طريق !.
وكنت قد اعتزمت أن أشكو الى هذه المذكرات طرقات فلسطين منذ زمن طويل . ولكن لا فائدة . ما ذهبت مشوارا فاعتزمت شكواه الا وتلاه غيره أفظع منــــه .
الطرقات فى فلسطين كأنها ثعبان ملتو مطروح على وجوه الجبال . تسير على شريط ضيق فاذا نظرت جـوارك أبصرت هاوية لا ترى لها قرارا .. وانحراف قليل من السيارة يردبك الى أسفل سافلين .. وتهتز بك السيارة

كانك تركب شوكة رنانة . وتذهب متعرجا منثنيا على صراط غير مستقيم !

الا هذه الطريق بين رام الله واريحية . فريدة بابها ووحيدة نوعها . هى فوق مدى الخيال وعورة وخطورة . وهى طريق مختصرة جديدة صنعها الجيش الاردنى . خوفتنا فى الذهاب فاجتنبناها فى الاياب . ولست أنسى نزولنا بالسيارة نزلة حلزونية فى اتجاه شبه عمودى الى الاسفل . على أن المناظر هناك جميلة خلابة . كل هذه الجبال الكبيرة الكثيرة مكسوة بأشجار الزيتون . وهذه الاشجار تغطى كل فلسطين تماما أو قريبا من التمام . حتى بلغنا أريحية .. وهى على الحدود الفاصلة بين فلسطين وشرق الأردن . ثم سرنا على طريق مرصوف مريح .. ودخلنا حدود شرق الاردن ، ولزمنا طريقا ملتويا عن يمينه جبل عال وعن شماله هوة عميقة فى قرارها مجرى مائى ضيق تحيط به أشجار ذات أزهار كبيرة حمراء .. طول نحو اربعين من الكيلومترات .. حتى بلغنا مدينة الصلت ..

والصلت هى الاخرى كالمدرج . مبنية على جبل . وازدحم الناس علينا وعدوا خلف العربة وصفقوا وهللوا . انها عربة من فلسطين . وكانوا يظنون الرملة فى أيدى اليهود .

وأمطرونا وابلا من الاسئلة . وتركنا كاظما لدى أقاربه وبكل صعوبة تملصنا من الناس واستأنفنا المسير الى عمان .. فبلغناها فى الساعة السابعة من مساء يوم السبت ١٩٤٨/٥/٢٢ .

# وعمان

مكان معروف منذ القدم . ولكن عمان المدينة لاتزال تحت البناء . ومساحتها صغيرة . وهى الاخرى على جبل . المبانى الحديثة فيها مبنية بالحجر الابيض وهى قليلة . وعمان مركز تجارى نشيط .. واذا سرت فيها تخيلت انك تسير فى الموسكى أو السكة الجديدة أو نحو ذلك .

وسمعنا أم كلثوم تغنى نهج البردة ونحن فى شوارع عمان . وما كان يخطر ذلك لنا على بال . وذهبنا للدكتور عادل النابلسى مع عديله الذى أتينا به معنا . والدكتور عادل النابلسي شخصية طيبة .. وقد خدمنا وساعدنا أكرم مساعدة .. وهو طبيب اسنان الملك الخاص . وتعشينا عنده وانصرفنا لا نلوى على شىء .

وبات أخونا محمد عزب المرض بالبعثة بعربة الاسعاف .. أما أنا وفريد فقد ذهبنا الى المستشفى حيث ضيفنا أنفسنا بعد أن تلفنت للطبيب . وأكرمونا هناك . وفرحنا بمكان يؤوينا هذه الليلة .. وخرجنا فاشترينا ورقا . ثم عدنا . وسهرت أكتب رسائل . فكتبت للملك عبد الله . ثم كتبت لأمى . ثم كتبت لسلوناس . ثم .. لم يطل ليلى .. ولكن لم أنم !

وكان موعدى مع الدكتور عادل فى الساعة السابعة صباحا للذهاب الى الديوان الملكى . واستقللنا السيارة الى قصر الملك . وقابلنا رئيس الديوان مقابلة حسنة .

ولم نكد نجلس قليلا حتى دخل الملك عبد الله .
وحيانا وحييناه . وتحدث معنا قليلا عن سير القتال فى فلسطين . وسألنا عن رحلتنا . وشرحت له الفرض الذى جئنا من أجله . وأخبرته أننا جئنا نشكو له اليهود أن سرقوا منا طبيبا وممرضين وسيارتين مخالفين بذلك قانون الصليب الاحمر .
وقال الملك : لابد ان أحتج لدى الصليب الاحمر . وامر بأن يرتب ذلك . ثم أمر ان يستقبلنا وزير الخارجية . واستأذنا وذهبنا الى وزارة الخارجية . حيث قابلنا فوزى الملقى باشا . وقد أعجبتنى شخصيته . مازال فى دور الشباب . بسام الوجه أزرق العينين يشيع وجهه نشاطا وحيوية . وهو مستنير ومتحمس وذكى .. أعجبنى وهو يقول عن أمريكا : شو .. ينعل أبوهم .. هما مابيعترفوا فينا .. نحنا ما بنعترف فيهم » .
وذلك بمناسبة رفض شرق الاردن الرد على اسئلة مجلس الامن . وأمضينا عنده وقتا طيبا . وقص علينا انه فى زمن الرسول دارت معركة بين المسلمين والكفار عند الفجر وانتصر المسلمون عند المغرب . وبشر الرسول بالنصر فبكى .. لان الكفر يجب أن ينهزم أمام الايمان لاول وهلة . وتأخير النصر حتى المغرب يدل على خلل فى الايمان « اما فى أو فيكم » .
وما أحرى وزراءنا بأن ينهلوا بعض الشىء من المنابع الاسلامية . طراز لانراه فى مصر .
وذهبت بعد ذلك الى المفوضية المصرية . وهى افخم بكثير فى بنائها وأثاثها من الديوان الملكى الذى يشبه دوار العمدة . ثم ذهبنا لمقابلة عزام باشا . وهو يقيم فى سراى

اسماعيل باشا البلبيسي . دار ضخمة . ذات حديقة
غاية فى الجمال يفوح الجو فيها بأريج القرنفل . والتقينا
هناك ببعض المصريين . وكلمنا عزام باشا ثم جاء جلوب
باشا القائد العام لجيش شرق الاردن . هذا هو لورنس
الكبير . انه الداهية الذى يختفى وراء قصة شرق
الاردن فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها . بمغشوش
الوجه ماكره . جاء مرتديا ملابسه العسكرية وقال :
صباح الخير .. أزعجناكم ؟ ودعاه عزام باشا لدخول
الباب قبله ولكن الرجل قال : « أستغفر الله
مابيصير » .

هذا الرجل يجلس مع عرب البادية فيلبس مايلبسون
.. ويأكل مايأكلون . بل انه يسير على عادتهم فى صيد
البراغيث من على الرقبة وقتلها .. حتى ولو لم يكن
هناك براغيث .

وقضينا وطرنا الرسمى من مشوار عمان . ورحنا
نسعى فى انحائها نقضى بعض حاجاتنا . وأخذنا فكرة عن
عمان لا بأس بها . وكان لفريد رغبة ظاهرة فى أن يقضى
الليل بعمان .. فان فيها سينما وفيها ملهى لم ندرك
ماهو ولكن شاهدنا به أنوار النيون . وأخذ منذ الصبح
يحاول أن يعرقل السفر . لذلك صممت على السفر .
وحددت الساعة الثالثة موعدا للرحيل مهما كان الامر .
وأعلنت عن عزمى الا أبيت هذه الليلة بغير الرملة .

ولما فرغنا من كل شىء وصرنا على وشك الرحيل ..
وبطريق المصادفة المحضة .. عن لنا أن نشترى بعض
الصحف . واشترينا اخبار اليوم والاهرام والمصرى
ولم نلبث قليلا حتى صاح محمد عزب : بشرى
والتفتنا . كانت معه جريدة المصرى .

وكان فيها صورة لاعضاء البعثة الطبية الذين تحرروا من أسرهم بأعجوبة وهم الدكتور أحمد سعيد خطاب ، والصيدلى محمد يوسف ، والملازم محمد حسن من قوات جيش الانقاذ العربى .

وهللنا وكبرنا وحمدنا الله . وكانت مفاجاة سارة سعيدة . وشعرت بعبء ثقيل ينزاح من على قلبى فجاة . وحمدنا الله . وزاد تصميمى على الذهاب للرملة فى نفس الليلة لكى نطمئن الموجودين هناك .

واخترنا الطريق الطويلة هذه المرة . فهى أسهل وآمن اذا قيست للتى جئنا بها . ووصلنا نابلس فى التاسعة مساء . واصلحنا السيارة . وشربنا مرطبا ثم استانفنا المسير الى طولكرم ، ومن بعدها كان طريق جميل فى نور القمر على قلل الجبال .

ومن بعد ذلك أخذ الضباب يتكاثف شيئا فشيئا . وبلغنا درجة يقف عندها البصر عند مترين من العين .. حتى لو أن للسيارة يدين لمدتهما تتحسس بهما الطريق !

ومضينا على ذلك حتى بلغنا مكانا بعد راس العين وقبل بيت نبالا .. ثم ..

ثم ماذا ؟

ثم شهدنا الموت كما لو نشهده من قبل لا فى الحقيقة ولا فى الخيال .

دوى فى الفضاء طلق نارى . فقلنا ضربة حارس . ولكن انهالت الطلقات . وقلنا معركة هنا بين العرب واليهود .

وتوقفنا . فتوقفت الطلقات .

فعدنا للسير من جديد .. فتكرر اطلاق النار بصورة عجيبة .. واذن فنحن الهدف .

كنت جالسا جوار السائق .. وبيننا محمد افندى كمال عديل الدكتور النابلسى .

ولذلك فقد اتيح لى أن أشهد ما لم يشهده الباقون الذين كانوا فى داخل العربة ..

عشرات القذائف منهالة فى سرعة عجيبة .. لا تسمع صوتها فحسب .. ولكن أرى وميضها .. فاذا هى قريبة واذا هى كثيرة تلمع من حقل على يسارنا . واسلمت الامر لله .. ودفعت كتفى للامام لكى يلقى الرصاصة من قبل قلبى .

واضطررنا للتوقف . وتوقفت الطلقات . وهنا جاءت فترة توقع الاسر من بعد فترة توقع الموت ! وعلم الله لم أشعر بالجبن . ولكن الذى شعرت به هو أننا فى موقف جدى . وفهمت معنى الجد كما لم أفهمه قبل طول الحياة .

هذه الدقائق التى قضيناها ننتظر أن يطلع علينا اليهود ليأخذونا اسرى ، قد شغلتنا عن كل شىء حتى عن أن نخاف .

على أن الله قد انزل السكينة فى قلبى . والهمنى الله ان كل مايمكن أن افعله هو الا افعل شيئا على الاطلاق. ورحنا نحاول الرجوع القهقرى بالسيارة بغير صوت .. حتى لاح لنا على البعد فلاح فى الحقول التى على اليمين .. ناديناه وقد جاء يرى الامر .. وهو الذى أفهمنا ان الضاربين عرب من الحراس .. ونادهم .. واذا هم لم يروا السيارة ولا حتى انوارها بسبب الضباب .. واذا هم كانوا يعتقدون أنها مصفحة يهودية لان السيارات لا تسير بعد المغرب . وكانوا يطلقون النار على صوت السيارة . وكانت مفاجأة عجيبة أن قائدهم كان مريضا لدى بالمستشفى .. فركبوا معنا ليمررونا من حرس القرى المجاورة اذ يعلمون أماكنهم .

ومضى المشهد بسلام ..

اما فريد فمجال الكلام عن وصفه ووصف هلعه كثير كثير .. ولكن الله سلم ..

ووصلنا الى الرملة فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل !

# معركة الرملة

وكنا جميعا يائسين من الرحلة . على قدر ما يستطيع العقل العلمى ان ييأس .

كان فى الرملة أول ماجئناها نحو ستين رجلا مدربا .. فيهم نحو عشرة من التشيكوسلوفاكيين وبعض الانجليز وواحد المانى .. اسمه سعيد الالمانى . لعله أكثر الناس شجاعة واقداما وعلو روح . وهو الرجل الذى بترت له ساقه اليسرى فيما بعد ، فكان فى اليوم التالى للعملية يمسك بالبقية الباقية منها ويلوح بها كما لو كانت مدفعا رشاشا يمطر الرصاص .. وما أقوى من يمزح فى مثل هذه الحال . وكان هدف المتفائلين فى الرملة أن يكون بها مائتا مقاتل . فأخذوا يدربون الشباب ويحفرون الخنادق ويحيطون البلد بسياج من الاسلاك الشائكة فى عجلة وهرولة . وراح اليهود يلتهمون القرى حول الرملة قرية قرية . حتى أحاطوا بها من جميع جهاتها ما عدا هذا الطريق الذى يصلها باللد .

وبين اللد والرملة أربعة كيلومترات .. وقد كانتا تصبحان بلدا واحدا لو لم تكن المزارع بينهما . أوقاتا لا يسهل التصرف فيها .

وكانت اللد والرملة هما كل مابقى ليطمع فيه اليهود فى المنطقة كلها .

وذات يوم أرسل اليهود رسالة لاسلكية الى مركز بوليس الرملة يقولون فيها : « اذا سلمتم امناكم على

أرواحكم .. واذا لم تسلموا فعلنا بكم كما فعلنا فى دير ياسين » ..

وكان اليهود فى دير ياسين قد ذبحوا القرية بالسكين نساءها وأطفالها . وكانوا يذبحون الطفل أمام أمه ثم يذبحونها .

وكانوا يقولون : لا تخافى عليه . انظرى .. ثم يذبحون الرضيع بين يدى أمه ..

أما الرجال فكانوا حفنة استشهدت فى أول الكارثة .

وليس ذلك بعجيب .. فان اليهود يهود على كل حال.

حكى لى السيد مبدى الخورى — وكان ضابط ارتباط — فى مرة كنت أزوره فى بيته ، أنه كان مع الصليب الاحمر بعد أحدى المعارك باللطرون ، وكان رجال الصليب الاحمر يتصلون بالعرب واليهود لتبادل الجرحى والقتلى . وتم تبادل الجرحى . وكان اليهود هم الذين عرضوا أن يأخذ كل قتلاه فقبل العرب . وكان القتلى اثنى عشر من اليهود وستة من العرب . فلما أخذ اليهود قتلاهم ، ذهب العرب ليفعلوا المثل .. فوضع لهم اليهود لغما قتل عربيين .

والقاعدة سارية .. اليهود هم اليهود !

واذن فلقد أرسل اليهود رسالة للرملة يأمرون بالتسليم ويهددون بالويل والثبور وعظائم الامور . على أن رد الرملة كان هو الاخر موجزا مختصرا . انه كان :

« لن نسلم الرملة للكلاب الاوغاد . واذا كان فيكم شجاع فهاجموا الرملة الليلة » .

وذات يوم صاح فلاح يعمل فى حقله قبيل العصر .. يا أهل الرملة . يا أهل الرملة « اليهود قادمون » . وأصابته رصاصة أتت به الى المستشفى . وكان هذا

اول المصابين فى معركة الرملة . واستمرت المعركة . واخذ اليهود يهجمون فى دفعات كأنها أمواج البحر الزاخر . وصارت الرملة مدينة النار ..

وجاء الليل . لم يجىء بسكونه ولكن جاء بضجيجه وعجيجه . وخيمت على المستشفى سحابة من الهم . كان علينا أن نقضى الوقت فى انتظار الذبح على أيدى اليهود .

وكانت بنادق العرب تجيب جاهدة على رشاشات اليهود التى لم تبق فى الليل لحظة صمت ..

وكم من مرة يقترب الضرب حتى أخاله فى شرفة غرفتى فأقفز لاتبين جلية الامر . فأجد الشرفة خالية.

لم يكن من عادة أحد من أفراد البعثة أن يقفز من السرير . ولكن ماحيلتهم والمدفع الاول من مدافع الليل يضطر سامعه الى أن يقفز قفزا وينتفض انتفاضا ؟ ثم تنصب المدافع وتنفتح أفواه الرشاشات وترتاع النفوس وتدق القلوب دقا عنيفا وينعقد مؤتمر فى شرفة المستشفى أمام باب غرفتى من الاطباء والموظفين والست فايدة .. وكلهم خوف صادق مخلص . فيما عدا الدكتور محمد . أما أنا فما كنت أرضى بغير البقـاء فى الفراش وليكن ما يكون .

وكانوا محقين معذورين .

ان ضلع البلد الذى يقع عليه مستشفانا .. ومستشفانا وحده ، كان يحميه سلك شائك وتسعة من الرجال مع تسع من البنادق .

ولو جاء اليهود من هذه الناحية لما كان ينقصهم غير عبارات الاستقبال الحسن . ومن دخل المستشفى لم يجد به سلاحا . ومن دخله اشرف على الرملة من عل

وتحكم فيها ولم تستطع قوة ان تخرجه .
واخيرا طلع الصبح . وخفقت الاصوات . ونظرنا هنا وهناك فاذا اليهود لم يأخذوا الرملة بعد . وقلنا لعل اليهود أرجأوا ذلك للغد . ولا داعي للعجلة والامر مضمون . أما نحن فكنا فى عنفوان الجهاد . عمل متواصل فى غرفة العمليات . حتى جاء المساء التالى . وهبت المعركة من جديد . وتكرر ماكان . الحمم ينصب . والجو مشبع بالرصاص . والمؤتمر منعقد خارج غرفتى . ومرة أو مرتين يخيل لى أن اطلاق النار فى شرفة غرفتى فأقوم لارى ولكن لا أجد . ويجيء الصبح فاذا أهل الرملة أنفسهم مندهشون . ان اليهود أنفسهم لو ساروا بغير اطلاق نار لدخلوا الرملة دون أن يفقدوا نحو عشرة أو بضعة عشر رجلا . ولكنهم لا يدخلون وهم يفقدون كل مرة عشرات وعشرات .
حتى جاء اليوم الثالث .. أعنى الليلة الثالثة ، كان المجاهدون فى الرملة فى ضيق وأى ضيق .. وفى مركز حرج كل الحرج . دارت المعركة . وسرعان ما كان العرب كالجواد التعب .
وأخذت أصوات بنادقهم تخفت رويدا رويدا حتى توقفت تماما عن الاطلاق .. لقد نفدت الذخيرة الى آخر ظرف !
وسكت العرب .. ولم يكن على اليهود الا أن يدخلوا. ولكن اليهود وياللعجب فضلوا الاستمرار فى اطلاق النار. ان اليهودى لا يخطو الا وهو واثق ثقة تجعل الجبان شجاعا . ولا تبلغ هذه الثقة حدها من نفسه الا بعد وقت .
وراحوا يطلقون النار طول الوقت ولا من مجيب ..

وبدأوا يثقون من خلو الطريق . وخطا اليهود الى ابواب الرملة ..

وكان ذلك الساعة الثانية صباحا . وهو الوقت الذى حدثت فيه المعجزة الكبرى ..

وما حدثت المعجزة الا بدعوات امهاتنا الصالحات .. ولا شك انهن كن يدعين لنا طول المدة ..

وصلت نجدة من بدو شرق الاردن الامجاد . من بنى صخر والعجارمة . واتباع مثقال باشا الفايز وعزام باشا . وصل منهم نحو مائة وخمسين . وهؤلاء بدلوا سير المعركة .. وغيروا مجرى التاريخ فيما يختص بالرملة .. وفيما يختص بنا .

هؤلاء البدو .. واكثرهم حفاة .. قد قاموا بالمعجزات وسجلوا من صور البطولة مايفوق طاقة الخيال .

عباءة من الوبر الجاف .. وبندقية .. ووجه أعجف ذو لحية قصيرة مدببة على اسفل الذقن . ترى الواحد منهم فتزدريه لاول وهلة .. ولكنهم والكل يشهد أصلب الناس عودا وأشدهم مراسا وأقواهم شكيمة .

وجاءوا فى سيارات نقل .. وكان لهم صراخ مخيف . وكانوا ينشدون : « وين انت ياصهيونى .. جولك العربان » .

ووصلوا فى اللحظة الحرجة .. واكتسحوا اليهود . وجروا وراءهم ما استطاعوا .. وتركوا منهم العشرات قتلى فى العراء .

آمنت بالعرب !

ولم يكونوا هم يؤمنون الا بالبندقية والسكين ويدعونها الشبرية . ولما كان الكثيرون منهم يعودون من المعركة ومعهم بنادق البرن والاستن التى غنموها من اليهود

كانوا يبيعونها للحراس من اهل البلد بأرخص الاثمان .
كانوا يرون من العار أن يتسلح الرجل أكثر من اللازم .

ولما جاءت الليلة التالية كان هؤلاء البدو فى خنادقهم حينما جاء اليهود . وبدأت المعركة ..

وشد واحد منهم ذؤابته وقال لاخيه فى تبرم وانكار : « ياشيخ هايل .. احنا حنقعد فى الخنادق ؟ » .. قال معاذ الله . وتركوا خنادقهم . واندفعوا صوب اليهود .. مثلما تنطلق السهام اذا شدت عنها الاقواس القوية ..

وكانوا بدائيين لا يعرفون أساليب الانبطاح على الارض لدى اطلاق المدافع عليهم . كان الواحد منهم اذا ابصر مدفعا يهوديا جرى اليه فقذف بعباءته فوقه .. ثم استل شبريته فأجهز على اليهود اجهازا .

ولم يمض يومان حتى اختفت الثياب البدوية وحلت محلها الازياء الكاكية العسكرية والاحذية.. ومازال بعضها ملطخا بدماء اليهود الذين كانوا يلبسونها .

وكانوا يسيرون فى عجب وخيلاء وهم يلبسون هـذا الزى الجديد ويحملون الساعات الذهبية والمعدنية مما افاءت الحرب عليهم .

بل سمعت انهم كانوا فى مرات يقتسمون اليهود على البعد .. وقد هم أحدهم مرة أن يرمى يهوديا .. فنحى صاحبه بندقية وهو يقول : « لا . هذا مالتى » . وأرداه بطلق وكان عنده بعد ثانية يأخذ مدفعه الرشـــاش وملابسه .

والذى اعجب له .. هو انه بوصول هؤلاء النـــاس المتهورين ودخولهم ساحة المعركة قلت نسبة الاصابات بين العرب بدرجة عجيبة لا تتناسب مع شـدة المعركة ولا مع خسائر اليهود . وقد يقتل من العرب واحد ويجرح

اثنان فى حين يترك اليهود عشرين قتيلا فى الميدان .. عدا ما هم مشهورون به من الحـرص على جر قتلاهم بالحبال لا يتركون منهم أحدا على قدر امكانهم .

واستمرت المعركة والفنا لياليناا المفعمة بصخب المدافع ودوى الرشاشات . ولما مرت بنا ليلة وحيدة هادئة لم نستطع أن ننام الليل .. كانت تنقصنا هـذه الموسيقى التى اعتدنا سماعها كل ليلة . ولما خفت حدة الهجوم على الرملة ظهرت هجمات أخرى على جبهة أوسع .. فكانت هجمات يهودية على اللد وعلى رأس العين .. حيث جرح الشيخ حسن سلامة ونقل لمستشفى اللد ثم لمستشفانا حيث استشهد .. وكانت شظية قد دخلت الى رئته اليسرى .

وفى بعض الاحيان كانت طائرة يهودية تمر لالقاء بعض القنابل . وفى احدى هذه المرات أصيبت ابنة خال الدكتور راسم بشظية أحدثت ثغرة فى صدرها وكانت فى مطبخ بيتها واستشهدت فى المستشفى . وسقطت احـدى القنابل فى المستشفى فأصيب ثلاثة من المرضى بجروح خفيفة . واحتججنا على ذلك .

هذا ويصاب كثير من النساء والاطفال . والعنبر الان فيه خمس عشرة امرأة وطفلا .

ومازالت معركة الرملة دائرة الى الان على صـورة هجمات يشنها اليهود بالليل .. ولكن بالرملة غير هؤلاء العرب حامية من الجيش الاردنى النظامى . والحافظ هو الله .

اما قبل ..

فنحن الان اكثر احساسا بضغط الحيـاة .. لان الحياة الان أشد ضغطا علينا فى كل مرافقها ونواحيها .

نحن نحيا حياة كحياة السجن لا غدوة فيها ولا رواح . ولا تسلية فيها ولا تسرية . واقبل الصيف بحره وأمره .

والذباب والبعوض أكثر مضايقة من اليهود .

وليس هنا ماء . مازال ممنوعا من اجل منع الماء عن القدس . ولو كان هنا ماء لكان الفرق كفرق مابين الجنة والنار .

تأتى بالماء عربة كل يوم من اللد . ويحدث احيانا ان تتعطل العربة فتتأخر . وما كنت اتخيل أبدا أن يكون العطش ضمن شكاوى المرضى فى احدى المستشفيات .

كنا اول ماجئنا نلعب التنس ونستحم فى حوض السباحة فنجد الدش حاضرا .. فلما زاد علينا الحر والضيق والشوق الى الوطن زاد علينا الحرمان حتى من الماء .

يحدث أن أذهب للعمليات . وألبث ربع ساعة أنظف يدى بالفرشاة والصابون .. ثم يصب الممرض الماء على يدى فاذا فيه ذبابة . ولا أستطيع أبدا أن أستغنى عن قطرة ماء .

أما الجاز فكل قطرة منه يحصل عليها بقطرات من العرق . اليوم صفيحة من الرملة وغدا صفيحة من اللد .. ثم صفيحة من متبرع .. بطريقة لا تطمئن فيها الى نظام ثابت ..

واليوم هو السابع من يونية . وقد ظهرت ثلاث حالات من الغنغرينا الغازية توفيت احداها .. والمصل اللازم لا نملك منه الا بضع أمبولات .. وليس لدينا ماء اكسجين .

كما ظهرت حالات ملاريا فى بعض الاردنيين والمرضى

والمرضين .. وكان لدينا خمسون قرصا من الكينين . نعم . كان لدينا .

والويل كل الويل اذا جاء التيفود أو الدوسنطاريا . اننا نبذل فوق مانستطيع للسيطرة على الذباب ولكن..! ليس هناك ماء .. وليست هناك مراحيض صحية .. مع عدد كبير من أكثر المرضى جهلا واتعابا . وعدد كبير من المرضين ذوى المشكلات المستمرة التى لا تنتهى .. وعمل مجهد فى غرفة العمليات والمرور ملقى على عاتق الدكتور أحمد وعاتقى .. قد يستمر بالليل والنهار وفق ماتجىء به المعارك الدائرة حولنا .

وهؤلاء الذين تفيض رءوسهم بالقمل كما يفيض النيل . آه لنا لو حضرت جرثومة من جراثيم التيفوس. أو الحمى الراجعة .

ثم الطعام ! طعام حربى بل أشد من ذلك . ولن أنسى تكرر الامسية علينا بالجبن والبصل كل مساء كل مساء لا تشذ عن ذلك ليلة . وهى نعمة على كل حال . وليس أكبر مايضايقنى أمر الطعام فاننى تكفينى الكسرة . ولكن حسبى أن أذكر أن مما نعتز به أننا أكلنا ملوخية خضراء فى يوم من الايام .

ونسمع عن الحفلات التى تقام فى مصر للترفيه عن الجند . بل ونسمع عن حفلات الهلال الاحمر . ونحن فى هذا المنفى لا يسمع بنا أحد ولا يعلم بحالتنا هؤلاء الذين أرسلونا . وهو معنى أسعد له كل السعادة وأطرب به كل الطرب . لانه ينفى شبهة الاشراك بالله فى توخى الاجر وانتظار الجزاء . لا يعلم بحالنا غير الله . فهو وحده حسبنا .. ومنه وحده الاجر والثواب .

مكان واحد ظل كما هو لم يتغير . هو غرفتى . مافتئت

نظيفة مرتبة . أعتنى بها كما أعتنى بوطنى . وهى الملجأ لى من كل ما هنالك . ومازالت كما كانت غرفة لاثنين . ومازلت على عادتى منذ ذهب خطاب أملأ ساعته وأنظف ثيابه كل يوم . ومازالت بطاقتانا على الباب . والواقع اننى أحب هذه الغرفة حبا كبيرا ، وأحب وقفتى فى هذا الشباك مشرفا على أبهى المناظر من أشجار الصنوبر العالية المدببة ومن هذه الاشجار ذات الازهار الحمراء الكبيرة ، ثم هذه الجبال الخضراء .. ثم بلدة الرملة أشرف عليها من عل وتؤلف جزءا من هذا المنظر البديع .

ولولا جلساتى الى نفسى فى خلواتى أسامرها وتسامرنى ونتفكر سويا فى الحياة وغير الحياة فكرا مليئا دسما ، لاحسست وحشة قاتلة ، ولما أطقت الحياة فى هذا الفراغ الصارخ . ولكن نفسى لم تزل بين جنبى . وفكرى لم يزل فى رأسى يملأ على هذا الفضاء . فجزاه الله خيرا وبارك مابينى وبينه .

على أن هذه العزلة التى ضربت أطنابها بيننا وبين غيرنا ، قد جعلتنى على علم بمعنى الحنين . انكشفت لى أسراره وبعثت فى كوامنه . كل ما فى حنين وشوق الى هناك . ولكنه فى سبيل الله . فهو حبيب محبب . وكل شىء بأجره وكل عذاب بثواب .

# فتاة الهجاناه

وكنا فى الليلة الاولى لمعركة الرملة . والمستشفى كخلية النحل تغلى بالحركة والنشاط . ولحظت حركة غير عادية بالاستقبال فذهبت أتبين جلية الأمر . فوجدت فتاتا هناك وقد ازدحموا حولها أشد الزحام . وراح كل ينتحل سببا لوجوده .. فالمرضون مشغولون باجراء الاسعافات ، وبعض الافراد مهتمون باخذ اقوالها وتدوينها فى ورق يحملونه .. ولكن من وراء كل ذلك كنت أقرأ جيدا أنها شيمة حب الاستطلاع . وكأنهم لم يشهدوا فتاة يهودية قط .

وصرفتهم جميعا فى حزم وقسوة . وأمرت فنقلت الى غرفة الاشعة . وكان واضحا لهم ودرسا عمليا أن المستشفى تعاملها نفس المعاملة التى تعامل بها الجميع بدون تفريق ولا تكلف .

كانت نحيلة ضئيلة الجسم . لو لم يقولوا لى انها فتاة لما تبينت ذلك فى الوهلة الاولى . كانت تلبس الملابس الحربية الكاكية للهاجاناه . وحذاء بنيا صغيرا . وكان وجهها مغبرا .. وتناثر شعرها القصير الذى يشبه شعر الاردنيين الطويل .

ولم تجد عيناى فى وجهها من الجمال شيئا . وان كانت ملامحها على العموم متناسقة . ولعل ذلك راجع

الى ما كسا وجهها من امارات الاعياء ودلائل البؤس والرعب والشقاء .
اسمها صارة بنت شمعون جميل . يمنية الاصل . من مستعمرة نتاليا اليهودية . وكانت تحمل حقيبة من حقيبات الاسعاف مستعدة كل الاستعداد .
وكانت أول ماجاءت على حالة من الرعب المطلق .. وكان فى ذهنها أننا سنقطعها قطعا ونمزقها اربا . وكانت هذه هى الفكرة التى لقنتها عن العرب .
وقالت : ارحمونى . أنا بنت .
قلت : واذا كنت راجل ياخيه . للمريض اكرامه مهما يكون .
قالت : وحياة الله . انتو برضه بتعرفوا « الله » . مش هيك ؟
قلت : لا تخافى ياخيه . انت هون فى أمان . وبنكرمك اكتير ونعاملك منيح وما عندنا فرق بينك وبين العرب
قالت : أبويا بيعطيكو مصارى
قلت : مابنحب المصارى ولا بنريدها ياخيه
قالت : نحنا بنعامل مرضاكم منيح
قلت : لا ياخيه . أنتم أسرتم النا حكيم وخمسة رجال اسعاف . وما بيجوز أسرهم وما بيصير فى القانون .
لكن هيك سووا اليهود
وأسقط فى يدها وقالت : لا تخافوا عليهم ..
قلت : مابيأثر نخاف ولا منخفش . لكن نحنا بنكرم المريض والاسير مهما يكون
قالت وقد بدا أنها لم تكن تتوقع كل هذا .. واخذت بما سمعت .. وأسرناها بالمعروف : ربنا يحفظكم

قلت : ربنا يحفظ اخونا اللى هندكم .
وشردت عيناها وقالت : انتم احسن ناس . وقالتها دون رياء وتكلف . نطقت بها فى نفس هادئة وضمير مستريح
وقلت : هيك اخلاق العرب ياخيه .
واجرينا لها الفحص بجهاز الاشعة . كانت عظمة ذراعها الايمن مهشمة ولحمه ممزقا . واخترقت الرصاصة ذراعها فدخلت صدرها . ولابد انها استقرت فى العمود الفقرى لان الفتاة كان عندها شلل تام حسى وحركى فى النصف الاسفل من جسمها . ولكن لم نستطع بجهاز الاشعة الذى بين أيدينا أن نكتشف الرصاصة ، نظرا لحالة الجهاز ولشدة اعياء المريضة .
واعطيتها زجاجتين من البلازما وكانت تخشى أن نأخذ منها دما فاريناها أننا نعطيها دما . وراحت الفتاة تتلفت فيما حولها فسألتنى . أنت مصرى ؟ فأجبت بالايجاب . ثم اطمأنت الينا وانتفى عنها الروع وحميناها من كل سوء ومن هذه المجموعات التى كانت تريد رؤية اليهودية فكنا نطردهم فى قسوة وجفاء . وافهمت الجميع انهم اذا لم يحترموا شعورنا فان شرفنا الطبى لا يسمح لنا بالبقاء فى الرملة بعد ذلك .
وعاملناها أكرم معاملة . ولقيت لدينا من الرعاية فى تمريضها وتغذيتها ماجعل أسرها لدينا رغم المرض أحب اليها من حريتها لدى اليهود وهى معافاة .
ولو لم تكن الفتاة خالية تماما من معانى الجمال لكان من الجائز أن أجد بعض الحرج فى كل هذه الرعاية التى كنت أحوطها بها . وطالما سمعت ناسا يقولون اقتلها او اذبحها أو قطعها .. فكنت اعلمهم ماكنت أعلم . ان

عدوى اذا أكرمنى الله بالقدرة عليه ، وجب ان اشكر الله بالاحسان اليه .

وألفتنى الفتاة . وكان يجيئنى الممرض السهران فيقول انها كانت تناديني كثيرا أثناء نومها . فأخبرته بأنها تهذى تحت تأثير المورفين . ولم يمنعنى شيء .. حتى مداعبات الدكتور محمد والدكتور أحمد وفريد ، من أن أؤدى واجبى نحوها كما اشتهى كاملا غير منقوص .

وجاءنا كاظم مصابا فى معركة الرملة . وهو يتكلم العبرية كما يتكلم العربية . وقلت لها ان لدينا مريضا آخر من الهاجاناه . وأصعدناه اليها مخفورا بجندى . وعبست وأنا أصدر الامر بأن ينزل بعد خمس دقائق . وقال لها انه يهودى عراقى أسر فى معركة القدس . قال ان الفرد كان يخصه كل أسبوعين بيضة .

فقالت له : وهل تشهدون البيض ؟

وسألها عن عدد المهاجمين من الهاجاناه .. فقالت انها لا تعرف ..

ولكن كان هناك من فتيات الاسعاف . مائة وخمسون فتاة .

وقال لها انه فى كل ليلة يسمع القصف فينتظر أن يأتى الفرج بالخلاص من هذا الاسر .

فنهرته الفتاة . وقالت له ان هؤلاء العرب خير من اهلنا . وانها لتلقى معاملة ما كانت لتتخيلها . وانها عرفت هنا الامن والرى والشبع . وقد أكرمها العرب حيث غدر بها أهلها . أنها أصيبت وهى جالسة تضمد جراح زميلة لها .. وحمل اليهود زميلتهما وتركوها لتقع فى الاسر . وقالت ان هؤلاء الهاجاناه أخذوهن بالقوة

للعمل والواقع أن الفتاة كانت من النحول وضعف البنية بدرجة أدهشنى معها أن تعمل فى صفوف المحاربين . ولكن علمت أنها جاءت الى فلسطين من اليمن بعد أن خدعهم سراب الدولة الصهيونية فى أرض الميعاد . وكانت تعمل فى بيارة للبرتقال حتى اغتصبتها الهاجاناه وزجت بها فى الميدان .

وذهبت الى عمـــان لأقابل الملك عبـد الله وأبذل المساعى من أجل خطاب . وعندما عدت أبلغونى أنها قد توفيت . وانتهت آلامها .

## الهدنة

بل امر مدبر منذ زمن بعيد . ولقد فصلنا ذلك منذ مسافة زمنية وكتابية فى هذه المذكرات . واننى لاعتقد ان الجيوش العربية كان فى وسعها ان تكيل للصهيونية اضعاف ما كالت . وانما القصد والفرض أن يبدو للعالم ان العرب غالبون . ثم تنتقل القضـــية الى الاروقة السياسية وقد تخلص الانجليز من وعد بلفور باعلانهم انتهاء الانتداب .. ثم تهدد السلام بشن الدول العربية الحرب على الصهيونية ، ثم يذهبون لمجلس الامن والعرب غالبين .. وتؤخذ الاصوات لصالح العرب . ولا أستبعد ان تمتنع انجلترا وامريكا عن التصويت ولكن الاغلبيـة التابعة لهما والدول العربية ســــتلغى مشروع الدولة اليهودية ثم يكون ماسبق ذكره . الا اذا استطاع الغرب ان يشترى اسرائيل وشرق الاردن معا !!

وسافر الدكتور محمد الى القاهرة لاحضـــار مال وادوات وكم كنت اتمنى ان أكون انا المسافر مكانه ولكن لم يرض هو ولا المدير الدكتور احمد . انه سيرى أهله . وسيرى مصر . وجلست الليل وقد اسرجت بقيـــة الشمعات التى اعطتنيها امى .. فكتبت اليهـــا والى سلوناس .. وقلت لهما ان يكتبـــا الى فهذه فرصتى لرؤيتهما . وكنت انظـر الى محمـــد وانا اغبطه ان

سيلقاهما . وما زلت ارقب مقدمه على شوق لانه قادم من هناك يحمل عنهما خبرا او منهما اثرا .

وكنا نرقب مقدم الهدنة على انه مقدم الراحة والعمل القليل . ان الهدنة تبدأ يوم الجمعة الحادى عشر من يونية . وفى اليوم السابق اذاعة من مصر لام كلثـــوم تستمر حتى الساعة الثانية صباحا . ورتبنا أن يمكث عامل النور فى الموتور حتى ذلك الوقت ، وموعده العادى العاشرة مساء . ونمت ظهــر الخميس .. وايقظنى الدكتور يوسف زكى على غير عادة .. لقـــد كأن فى الاستقبال اثنان وعشرون مصابا ينتظرون الجراحات .

كان هذا اليوم السابق للهدنة يوم نشـــاط حربى عنيف . وهجم المسلحون من الاهلين العرب وبدو شرق الاردن هجوما خاطفا كاسحا فاستـولوا على أربع قرى يهودية . ولو انهم أخذوا بأسباب النظام والجد لاجلوا اليهود عن مناطق بأسرها . ولكن اليهـود كانوا يفرون من القرية فلا يتابعهم العرب .. ويجدون متســـعا للتحصن فى القرية التالية فى الوقت الذى انشغل فيه العرب بالسلب والنهب . ولم تكن الاسلاب لتوازى أبدا قيمة ماضيعوه فيها من وقت وما ضيعوا من فرصـــة قهر اليهود على نطاق أكبر .

عاد بعضهم بعلبة من البسكويت ، وبعضهم بكيس بوية حمراء . وبعضهم بملابس نسائية ورجالية وغنائم اخر ..

ومن هذه الغنائم اشتريت بعض الالات الجراحيـــة التى لا تقل قيمتها عن ســتة جنيهـــات او أكثر .. اشتريتها بعشرين قرشا ! ولـكنهم اتوا كذلك ببعض اليهود . كان فى مركز البوليس ستة عشر رجلا واربع

عشرة امراة .. وكان لدينا نحن ستة .. واحدة انثى وخمسة رجال .
وراح الامل فى الراحة . وحبسنا انفسنا فى غرفة العمليات مايفرغ الواحد من عملية الا لاستقبال اخرى . وانزلنا الراديو الى غرفة العمليات . وانصرف الدكتور احمد والدكتور راسم بعد الوصلة الثانية . ورايت خير علاج لهذا الارق الذى ينتابني فى هذه الايام ان استأنف العمل .. فعملت وام كلثوم تغنى أهل الهوى ياليل . ولما آنتهينا من المجاريح العرب ختمت ليلتى بيهودى اسمه نفتلى زينفلد ذى شيظة فى رئته اليمنى .. ثم بالفتاة اليهودية ..

وكان اسمها روث سيمون ليون .. ذات ذكاء وخفة . شديدة البياض ، وكانت أول ماجاءت ترتدى قميصا وبنطلونا قصيرا قصيرا . ولا حياء عند نساء اليهود على كل حال . كانت عضلات فخذها الايسر ممزقة على نطاق واسع . واعطتها البنج الست فايدة . ثم ارادت ان تنزع سلسلة ذهبية من عنقها وخاتما ودبلة من اصبعيها .. وقلت تفكها انها يهودية فلن تسمح بذلك .. ولكن الفتاة فعلا أطبقت أصابعها واعطيناها مزيدا من المخدر لكى ننزع عنها حليها نحفظها لها . وفرغت ام كلثوم ، وانطفأ النور ، وغادرت غرفة العمليات بعد أن اتممت الجراحة على ضوء سراج .. وصعدت فى الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل .

ولم يكن ذلك كل ما هنالك .
فى الساعة السادسة من صبيحة يوم الهدنة .. اى

يوم الجمعة ، جاءت لربع عشرة جالة اخرى . ونزلنا للعمل من جديد ..

ولم يحترم اليهـــود الهدنة .. بل هاجموا الرملة بالذات . وكنا كلما فرغنا من فوج جاء فوج .. واستمر عملنا بالعمليات طيلة اليوم حتى الساعة الثانية عشرة مساء . ولم تبق الا حالتان ارجأناهما للصبح فأنجزناهما مع حالتين جدد .. وصعدنا من العمليات فى الرابعة الا الربع من بعد ظهر السبت .. وارتمينا على السرير لا نستطيع قياما بل لا نستطيع حراكا .

وكان استقبالنا لليهود استقبال عرب نبلاء كرام . وكانوا هم فى غاية الخجل مما كنا نحوطهم به من لطف ورعاية مقابل ما جاءوا به من نية القتل والغدر والتخريب ورحبت بهم وقلت ان لهم الآن ان يعتبروا أنفسهم اخوة لنا .. وان من تقاليدنا العربية أننا بقدر شدتنا فى لقاء المحاربين تكون رعايتنا لهم اذا أسروا . وفى اليوم التالى تسلمهم جيش شرق الاردن لترحيلهم الى هنـــاك ، فسلمتهم فيما عدا نفتلى زينفلد هذا ذو الجــراحة الصدرية حيث لا يتحمل السفر . وسلمت الفتاة لان فى بقائها فتنة للناس تتقن هى ايقاظها دأب نســـاء اليهود ..

وشاءت ان تخرج بهذا الشورت الذى جاءت به بالرغم من ان جبيرة خلفية كانت مركبة على ساقها .. وشهدتها تمشى كذلك فصـــحت فى هؤلاء الافراد من البوليس الفلسطينى كيف ان امرأة تمشى وسط عشرة رجال من العرب وهى على ذلك الحال من العرى . وخجلوا وحملوها على محفة وغطوها ببطانية . وسلمناها حليها وفرحت

.. ومضت وهى تلهج بالشكر وتقول انها ستحفظ عن هنا أسعد الذكريات !

بقي منهم نفتلى هذا . كانت اصابته اشبه الاشياء باصابة الشهيد حسن سلامة . ولكنه اخذ فى التحسن السريع . وجرت بينى وبينه احاديث شتى فى السياسة وغير السياسة . واطمأن الرجل واعجب . وطلب عنوانى ليكون على صلة بى فى المقبل من الايام . وطلب منى أن أعين نوع الهدية التى يجلبها لى فاعتذرت . وزارنا مرة رجال برنادوت .. وقابلوه وأخليت الفرفة ليكونوا على انفراد . وخرجوا يقولون ان اسيرك يتمنى أن يظل بجانبك .

جاء من النمسا عام ١٩٣٩ . وله زوجة وابن . وهو فى الرابعة والعشرين . وأسلمته لليهود مع الصليب الاحمر عند الخط اليهودى الاول بعد بلدة العباسية يوم ١٩٤٨/٦/٢٤ .

# وجاء خطاب

مع الدكتور محمد . انه لم يعان من أسره الا أربعة ايام وعانينا نحن من أسره شهراً . وكانت الحياة قبل مجيئه قد فاضت املالا واخـــلالا .. وذات يوم وانا اتقلب فى الفراش فى حر الظهيرة سمعت ضـجة كنت احسبها لقدوم محمد . ولكن جاءنى النبـــأ .. ان الدكتور خطاب قد عاد .

واسرعت اليه .. وتعانقنا عناقا طويلا . ودخلنا الى غرفتنا نبكى .. وأحسست بأننى أرتفع الى فوق وقد انزاح من كاهلى عبء وأى عبء .

وبمجىء خطاب تحسن الجو ، وتحسنت الاحــوال كلها . وما عاد شىء يهمنى . واحضر لى معه الهدايا المقدسة والرسالات المقدسة .. من أمي ومن سلوناس.

وخفت وطأة العمل .. وزادت وطأة اللعب . لعب البنج بنج ألم تقل سلوناس انها رأتنى فى النوم العب البنج بنج ؟

وهو كل مابقى من وسائل التسلية .. عدا الغناء .. ولا يعده الجميع هنا تسلية .

وما كان أبدع القمر نمشى فى أشعته كلنا بين هــذه الصنوبرات الكثيفة . وما كان الطف الدعابة والمرح والفكاهة نتقنها ونتفنن فيها . هــذا مع الاضـطراد

المستمر فى قلة الدواء والاكل والماء والمال بالمستشفى .. مما انضج فكرة سفرى الى مصر .

## مع اليهود

نعم . ها هو ذا كورفوازييه مندوب الصليب الاحمر برام الله يزورنى ومعه المس كلت والاخ جورج سلفيتى .. او كريب جورجيت كما تسميه . وتناولوا معنا الفداء وكنت وخطاب صائمين .. وكان وقت مرح . ثم اتفقنا على حضورى مع الدكتور بودوسيان والسيد مبدى الخورى فى الغد الى الخط العربى الاول بمنطقة العباسية لشهود تبادل الاسرى ولقاء بعض الاطباء اليهود . واخذت معى نفتلى الذى تقرر ذهابه ذلك اليوم .. وفرح الشاب كل الفرح . والتقينا مع الصليب الاحمر ، ثم جاء الدكتور ستنبرج اليهودى وجاء بعض رجال الهاجاناه .. والمس « كلت » وواحدة اخرى من الصليب الاحمر .. واجتمعت الجماعة بالطريق فى اول المنطقة اليهودية . وجاءت سيارة اسعاف يهودية تحمل الاسرى . هاهى ذى سيدة عربية عجوز ثم هاهى ذه وردة الياس الشامي وابنها .. وكنت انا الذى ارسلتهما ليافا فى سيارة اسعاف يافا لاجراء توسيع لبلعوم الصغير بالمستشفى الفرنسى هناك اذ لا توجد عندنا انبوبة زئبق .. وتركت لزوجها خمسة اطفال .. وتركتنى لزوجها يمر على مستنجدا بين الفينة والفينة واخذوا لى صورة مع الطفل .

ثم هذا هو الشيخ الخالدى الكبير .. اختيار .. اعنى عجوز .. فى نحو التسعين من عمره او اكثر .. وهو والد الدكتور حسين الخالدى سكرتير الهيئة

العربية العليا .. ابناه طبيبان وحفيده طبيب .. نزل من العربة فى جلال وايمان وهو يحمل فى يمينه المصحف الشريف .

حتى جاء دور نفتلى فشكرنى وشكرنى الدكتور ستينبرج على حسن معاملته .. واخذوا لنا صورة نتصافح مصافحة الوداع لتنشر فى صحف الهاجاناه .

وتحدثت مع الطبيب عن الاسرى الثلاثة الاوائل الذين لايزالون هناك مع عربة الاسعاف . وقال لى انهم يعملون كرجال اسعاف فى معسكر للمعتقلين العرب وان القانون يجعل له الاحتفاظ بهم اذ هو محتاج اليهم . واخبرته عن عدم قانونية أسرهم من الاساس اذ أسروا غدرا فى سيارة اسعاف وكانوا عزلا ويؤدون مهمة طبية . وراح الرجل يساومنى مساومة التاجر لا مساومة الطبيب .. حتى فهمت منه انه سيفكر فى أمر الرجال أما العرتة فهو محتاج اليها كل الحاجة .. وقلت خذ السيارة وهات الرجال .. وافترقنا .. على أن نعود فى الساعة الرابعة فيكون ستينبرج قد أحضر فريقا من الاسرى العرب . وذهبنا الى مستعمرة بن شمن اليهودية ومعنا شابة الصليب الاحمر ذات العينين الزرقاوين والشعر المذهب . ولم تكن كثيرة الجمال . وكنا نحمل لهم كمية من الغذاء باسم الصليب الاحمر آتية من تل بأبيب . وبن شمن هذه هى التى يسمونها سويسرا فلسطين .

ظاهرها فى غاية الجمال وباطنها يقال انه اكثر جمالا . ووقفنا عند الاسلاك الشائكة التى تكون الاستحكامات الخارجية للمنطقة .. ونزلت الفتاة ومبدى يحملان علم الصليب الأحمر .. ولم نشهد من المستعمرة احدا مطلقا

فى بادىء الامر .. ولكن لما علموا انه الصليب الاحمـــر خرجوا زرافات كما تخرج الارانب من جحورها وتكأكئوا حولنا يرمقوننا .. بينما راح منهم ناس بالسـيارات يفرغون شحنتها فى المخازن .

ولم يدعونا للدخول . بل اكرموا وفادتنا من الخارج. واتوا باريكتين نجلس فوقهما .. ثم اتوا بوعاء كبير من محلول القهوة المخفف شربنا منه فى اكواب صاجيـة كبيرة . ووزعوا علينا الشيكولاتة ، ثم جاءوا بعلبـة فتحوها فحسبت مافيها عدسا مطبوخا ولكنه كان تفاحا محفوظا .. وكان لذيذا والشكر لله .

وكانت زيارة لطيفة طويلة دامت نحو سـاعتين او تزيد . وقضيت نحو ساعة احادث الدكتور شمشوني جراح مستشفى البلد . شاب رياضى القوام . بداني بالسؤال عن عمرى وسالته انا فاذا هو فى الرابعـة والثلاثين واذا هو يخمن ان اكون فى مثل سنه . وقلت انني فى السابعة والعشرين « أكبر من سنى » والله يغفر على كل حال . بل عله يشيب !

ثم هبطت طيارة يهودية .. فاستاذن مني الدكتور وسافر فيها بسرعة . كان يقصد تل ابيب حيث زوجته وابنه . وقد تحدثنا فيما يجرى به حديث طبيبين من طب وانسانية وعاطفة .

اما بقية الزيارة فقد امضيتها مناقشـا . والتفوا حولى يرمقوننى بزحمة من الاعين ، ودار النقاش . بينى وبين شاب منهم يعمل فى المدرسة الزراعية وكان فى انجلترا زمنا . وكانت الحجة لى عليه فى وضوح وجلاء . انهم متعصبون ، ولكن فى غير ايمان . لاعترف بأنهم أهـل

نشاط ونظام واستغلال للحياة .. يحيون حياة مثالية من ناحية روح التعاون والروح الرياضية . ولكن اذا اختفت الفضيلة من اساس الحركة ولم تكن المحور الذى يزنها فانى أومن أن الحركة مقضى عليها بالفشل .

ثم سافرت الى مصر .

وهانذا جالس فى بوفيه محطة القنطرة .

قد كان سفرى بين القدس وبيت لحم مجهدا كل الاجهاد . اخذنا فى هذه المسافة القصيرة أربع ساعات. لاننا سرنا فى طريق اريحة ثم انحرفنا يمنة عند الكيلو الثالث عشر الى طريق عجيب كله غبار وصعود ونزول وانحناء .. ولقد مررنا عند منتصف الطريق بهاوية ليست بذات قرار .. يضيق عندها الطريق حتى لتمسك لدية السيارة أنفاسها .. فاذا نظرت يسرة هالتك هذه الهاوية الحادة وقرب قرارها حطام سيارات كانت تسير من قبلك ولكن خانها التوفيق ..

وكذلك سرنا حتى دخلنا المنطقة المصرية .. والتقيت فى بيت لحم ببعض متطوعى الاخوان وبالاخ محمود عبده رئيسهم والدكتور غراب وبعض الضباط ..

واستانفنا السير .. فوصلنا الى غزة فى المساء ، وزرت الدكتور طاهر الخطيب وقضينا الليل فى مستشفى الطوارىء . ولعل من الطريف أن أسجل حوارا عجيبا بين صبى جريح وامه . وكان الولد من ألمه يسب أمه طيلة الوقت .

وذهبت للقاهرة ..

نعم انها القاهرة مرة اخرى ! بمصابيح الكهرباء وانوار النيون ..

أمى المريضة .. ومشاوير الهلال .. وسلوناس !
فترة كنت أحسب أن ستكون أياما ثلاثة فاذا بها خمسة عشر .

وكانت عيشة عجبا . وضقت ذرعا بالقـــاهرة بعد ساعات محدودة من وصولى اليها .. لولا نوايا خاصة لم يكن يسعنى فى مصر الاها .

اننى الان لست أستبين منها الا معـالم حائلة .. ومعذور انا فى هذا . اننى أكتب الان فى الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم ١٤ نوفمبر ١٩٤٨ جالسا الى النضد الذى بحجرتى بمستشفى الدمرداش . نعم . انها أخيرا مستشفى الدمرداش ..

وفيما بين مستشفى الرملة ومستشفى الدمرداش كانت مستشفى رام الله .

# رام الله

رام الله . رام الله .. رام الله .
لقد غادرت رام الله منذ شهر من الزمان .
ومع ذلك . فمازلت أعيش فى رام الله حتى هذه اللحظة ! ولقد غادرتها .. ومازلت حتى اليوم أحاول أن أخرج منها فلا أستطيع .. وكأننى أعيش فى رام الله فى حقيقة الامر والقاهرة هى المجاز !
العمر الاخضر من العمر ! والذكريات البيضاء من الذكريات . تعيها الذاكرة بكل ما تستطيع أن تعى .. ويحس بها القلب بكل مايطيق أن يحس . وبأكثر مما يطيق وآه لو ترجع الايام . آه لو ترجع الايام .
وكنت قد أوشكت على تمام معداتى .. وآذنت بالرحيل .. حتى دق جرس التليفون بالبيت ولم أكن فيه ، واذا أستاذنا الدكتور الدمرداش بك يخبر الدكتور سعد أن لندن أذاعت نبأ سقوط الرملة فى أيدى اليهود وكذبت النبأ . كان من غير المعقول أن تسقط الرملة .
ذهبت للمرشد أحدثه ويحدثنى . كان هو الاخر فى حيرة بشأن الانباء التى شاعت عن الرملة . وأخبرته أننى مسافر فى الغد كيفما دار الامر .. ميمما الرملة .. مالم اضطر اضطرارا الى التوقف دونها .
وكان معظم المستشفى قد نقل الى مدينة رام الله . ولم أكن أدرى من ذهب اليه ومن بقى . ولكن الهلال اخبرنى ان مستشفى الرملة سيعهد بها الى .

وكان توديع ووداع ..

ومرة اخرى ذهبت لمطار الماظة وطرت الى عمان .

وطار معى ضابط برتبة الصاغ موفد فى مهمة لهناك .. وتعارفنا . ولما وصلنا الى عمان وجدنا اليوزباشى الطيار نبيه حشاد .. وهو الذى اتى بخطاب الى الرملة عقب أسره .. فاستقبلنا معا . وجلسنا مع بكباشى مصرى آخر فى استراحة مطار عمان المشيدة من الجريد وجذوع الشجر ، واعطيتهم ما معى من الصحف المصرية .. وكان السيد رياض الصلح رئيس وزارة لبنان ينوى السفر لمصر على ما اذكر ، فجلس معنا بعض الوقت حتى آزف الوقت فانصرف .. وكان يدخن سيجارة .. وكنا فى رمضان ! كان على سفر . وفرغت من اجراءات المطار .. واستقللنا عربة من عربات الجيش الى دار المفوضية المصرية .

ان عمان تتبع هى الاخرى نظام المرور فى اتجاه واحد .. لست أدرى لماذا !

وكانت جلسة مرحة باشة فى المفوضية . والمصريون فى غربتهم أحسن الناس وأحسنهم الى انفسهم .

ومضى زمن قليل جاء بعده الاميرالاى صبور بك رئيس البعثة العسكرية المصرية . وهو رجل ربعة يستطيع فى أسرع وقت أن يعطيك عنه فكرة حسنة . وهو مرح وذكى ومثقف على غير العهد بالطبقة البالية من لواءات الجيش ! واعتذرت فأصررت على ضرورة السفر لرام الله فى نفس اليوم . واتصلوا لى بصاحب سيارة فطلب اجرا عشرين جنيها . ومعنى هذا أن السفر بالسيارة من عمان لرام الله ضعف أجر الطيارة من القاهرة الى عمان ..

واتصل صبور بك باســـماعيل باشا البلبيسى ملك الجاز والبنزين فى شرق الاردن فصار الاجر ثمـــانية جنيهات .. وأخبرنى صبور بك أن الطريقة التى ينجح بها مسعاك عند الملك عبد الله هى أن تقول : ربنا يطول عمرك .. وعند البلبيسى باشا أن تقول ربنا يخليك .. وقلت لصبور بك ربنا يخليك ويطول عمرك .

وركبت سيارتى ، ومررت على مستشفى عمـــان فحييت موظفها الذى استقبلنى ليلة مبيتى بها أول مرة .. وصليت بها الظهر والعصر صلاة قصر ، ويممت شطر رام الله .

وكانت عمان تغلى ذلك اليوم .

ان الشعب الاردنى كان يحتج على فاجعـــة الرملة واللد .

كان فى المدينة اضراب عام وشامل . وأغلقت المتاجر وسارت المظاهرات فى كل مكان .. وارتفعت هتـــافات الشعب أمام قصر الملك ودار الحكومة بسقوط جلوب باشا وغيره من أوتاد الاستعمار الانجليزى . وما كادوا يرون صبور بك خارجا من دار الحكومة حتى صاحوا يهتفون لمصر الباسلة وللجيش المصرى الباسل .

حتى صاحبى الذى فى مستشفى عمان كان خجلان أسفا .. ولطفق يشكو آل أمره وكأنما يعتذر الى والى مصر .

ولم يكن الشأن شأن عمان وحدها ..

ان أريحا قد رفعت علما أسود .. حدادا على اللد والرملة !

قد كانت المصيبة كارثة عربية عامة ذهلت لها العرب من أقصاها لاقصاها وهم لا يستطيعون ابتلاع الحقيقة المرة !

حتى النساء خرجن فى مظاهرة فى رام الله .. وصحن يطالبن بالسلاح ليحاربن فلقد تخلى الرجال عن اللد والرملة !

ووقفت النساء يصحن .. وطفق القائد أحمد صدقى الجندى بك يبكى بالدموع الغزار .

ولم تكن كارثة اللد والرملة هزيمة عسكرية ، ولكنها كانت خيانة وجناية . وكانت هى الضربة التى ترنحت لها العروبة وبدلت القضية العربية من طريق الى طريق !

# الله والرملة

مدينتان من اعرق مدن فلسطين واكبرها . فى الاولى مطار مدنى هام هو الذى هبطنا اليه فكان أول ماوطئت قدمانا من أرض فلسطين . وفى الثانية مطار حربى هام اسسه الانجليز وهو الذى كان فيه مستشفانا وعشنا فيه ماشاء لنا الله .. وكانت لنا فيه هذه الذكريات الحلوة والمرة .. ولكنها القوية فى حلاوتها ومرارتها .. الثابتة وان طال عليها الامد فى ذاكرتنا وكأنها الندوب وآثار الجروح !

وقد قرأت عن المدينتين أثناء قراءاتى فى الغرفة العليا من مدرسة الاصدقاء برام الله . وهى التى كان فيها مستشفانا الثانى . وورد ذكرهما كثيرا فى كتاب تاريخ فلسطين متعلقا بالحروب الصليبية ثم بالحملة الفرنسية .

ولما زرنا الدير الذى بالرملة ـ ردا على زيارة كاهنه وفرقة الكشافة به ـ علمنا أنه أثر عتيق . وشاهدنا الغرفة التى كان يقطنها نابليون بونابرت ، ومن فوق سطح الدير شاهدنا الحرائق التى كانت تحدثها الطائرات المصرية فى رخبوط وعاقر وتل أبيب !

ولعل مما اود ان اذكره أن هذا الدير كانت تبيت فيه كل ليلة مئات من العائلات .. يملئون منه كل مكان . ويتراصون فوق الارض فى الحجر والردهات فردا جوار الاخر . وهؤلاء هم الناس الذين يقطنون أطراف البلدة فهم يتقون هجمات اليهود . وتكون فى الدير كل ليلة زحمة

بشرية تتلمس القدمان الارض خلالها باحتراس ، ولا تؤمن بالرغم من ذلك فيها السقطة او العثرة .

وما كان ذلك مما يرتاح له .. ولم يكن الكاهن ممن يرتاح لهم !

وبالرملة كذلك حي قديم متهدم . هو اثر باق لزلزال كان قد أصاب البلاد ، تتناقل أخباره الناس جيلا بعد جيل !

وفى ضواحى الرملة بناء يقال عنه النبى صالح .. كان يقام له ابان السلم مولد سنوى كبير .. وكان وفدا الرملة واللد يتنافسان على مكان الصدارة ابان هـذا الحفل .

وبين اللد والرملة كيلومترات أربعة . ولكن بينهما تفاوتا بينا .. بل ان بينهما تعصبا وتحديا كهذا الذى يكون بين قبائل وقبائل من صعيد مصر . وكان أثر ذلك يبين فى أمثال الاحتفال بمولد النبى صالح ، وفيما كان أهل الرملة يرددونه عن أهل اللد ويتندرون به عليهم .

وكان أهل الرملة أهل ثقافة وحضارة . وكان أهل اللد أهل تجارة ومهارة . وأهل الرملة يهتمون بالتعليم والتمدين ، وأهل اللد يمتازون بالنشاط والكدح فى الحياة . وكان السيد محمود الكيالى رئيس بلدية اللد ابن خال السيد محمود علاء الدين رئيس بلدية الرملة .

ومع ذلك فقد كان السيد علاء الدين هو الذى قص على نبأ اللداوى الذى ترك اللد لاول مرة وذهب للرملة فوجد فى سمائها القمر ، فثار لان أهل الرملة سرقوا من اللد قمرها . وطمأنه « الرمايوة » ووعدوه باعادته . فعاد للد ووجد القمر فى السماء فطاب ورضى واطمأن !

وكان لاهل الرملة ــ وهم أهل النعمة والثراء ــ عبيد

سود يقومون على خدمتهم وقضاء أمورهم . وأعجب بذلك اللداودة فسألوهم من أين هؤلاء . فقالوا لهم اننا نزرعهم فى أرضنا بالرملة . وعمد بعض أثرياء اللد فاشتروا بعض العبيد ، وحفروا لهم فى الارض يثبتون أقدامهم ليزرعوهم . ومن زرع حصد .. ولعلك تغرس الواحد واحدا فتجنى منه العشرة والعشرين !!

ومن الجحود الا تشكر هذه المذكرات السيد محمود الكيالى رئيس بلدية اللد . انه رجل فيه شهامة العروبة وكرمها . ساعدنا كثيرا فيما يتعلق بالماء والجاز . ولما أزمع محمد السفر لمصر رتب سيارة فخمة تنقله من الرملة لرام الله على نفقة بلدية اللد ! وكان مما يتمناه أن يظفر بنقل مستشفانا من الرملة الى اللد ، ولكنه كان حلما وهمته الظروف والاحداث والعتب على الظروف والاحداث .

وكان مستشفانا من قبل ثكنات بريطانية حول مطار شيده الانجليز أثناء الحرب . يقع على ربوة من الارض هى من الرملة كالضاحية .. ويشغل مساحة كبيرة وتحيط به أشجار الصنوبر وأشجار ذات أزهار كبيرة حمراء ، وفى مدخله جسر معلق كهذا الذى فى حدائق الحيوان .. وكان المنظر الطبيعي غاية فى الجمال لحسن طالعنا . وفى المعسكر أبنية كثيرة متناثرة .. تذهب حتى الاسلاك الشائكة التى تحد المعسكر بل تحد مدينة الرملة من هذه الناحية . ومن ورائها بكيلومترات قليلة يكمن اليهود !

وبحلولنا ـ خطاب وأنا ـ حلت بالمستشفى روح جديدة .. وكان هذا المستشفى هو المدرسة الاولى لنا من بعد مدرسة الكتاب .. وكانت الشهور الثلاثة التى

عملت فيها بهذا المستشفى شهور تمرين ضخم وثقافة ودراية بالعلم والحياة .. بقدر ما كانت شهور أمجاد وذكريات وأحاسيس .

وبجانب الصور العامة التى تراءت لنا فى الرملة .. برزت من بين آلاف الناس الذين اتصلنا بهم فى الرملة شخصيات فردية متميزة .. بعضها كالنتوء البارز وبعضها كالحفرة المنخسفة .. وكلاهما يسترعى انتباهك ويثير احساسك به وانت تسير فى طريق الحياة .

ولذلك أود ان اذكر ـ ولو مجرد ذكر ـ الحاج محمد .. أحد اليمنيين المدافعين عن الرملة . رايته أول مارايته امامى على نضد العمليات .. ولفت نظرى منه اصراره على عدم أخذ المخدر رغم ان جراحة كبيرة كنت اجريها فى ذراعه .. فأعطيته المخدر فى الوريد وهو لا يعلم ..
كان شاربه حليقا لا بالموس ولكن بالنار اذ انفجرت امامه قنبلة حارقة فى الهجوم على الملجأ الواقع بضواحى الرملة والذى استحكم فيه اليهود .. وقتل أخوه أمامه .. وحمل الينا وهو يحمد الله .. ويقول :
« لو بدى أموت لكنت مت » .. وعلمت من بعد ذلك بحسن بلائه واخلاصه الجهاد لله . وكان يتردد علينا للغيار وذات مرة أراد اعطائى مالا فرفضت . فأتى فى المرة التى بعدها بسلال من الفاكهة أمرت بتوزيعها فورا على المرضى بحضور أخيه . ومن هنا تبادلنا الاحاديث ونمت الصلة والثقة بينى وبينه .. وأولموا لى هذه الوليمة التى شهدها معى خطاب والشيخ أحمد فى « بيت اليمنيين » .. ولست أنسى منظر تلك الصينية الكبيرة التى يملؤها تل كبير من اللحم المفروم . وكانوا

كراما كل الكرم . فلهم الشكر كل الشكر .

ثم مريضا اسمه الفجعاوى .. شابا فى حوالى الثلاثين من عمره . قيل لى انه كان من أكثر الناس شجاعة وبلاء فى الدفاع عن يافا .. كما كان فخر صحابه فى الذكاء والفطنة والتدبير .

لم أشهد أنا من كل ذلك شيئا . ولكن الذى شهدته هو الفجعاوى المخبول . الذى جاء من يافا باصابة فى رأسه .. شفى منها بعد ان فقد اثمن وظائف الرأس . وقد استعاض عن ساقه الضائعة بعكاز اما عقله الضائع فلم يستطع أن يستعيض عنه بشيء ! وكان الفجعاوى مجنونا لطيفا محبا للخير دائبا على خـــدمة المرضى والسعى فى حاجاتهـم .. ولست أنسى قوله للدكتور احمد « تيجى نروح يافا ؟ نشحت سوا ؟ » وكان كثير الخطابة .. ولا داعى لاقتباس شيء من خطبه .

ـ هناك « عبسى محلول الزنار » .. مريض سورى من عكا .. أصيب فى صدره وشفاه الله على يدينا . وكان عاطفيا شديد العاطفية ان شكا أو شكر أو أبدى اعجابه . ولست أنسى صيحته كلما رآنى : « الله لا يحرمنا ها الشنبات » .. ثم أهدانا أباجورة من صنع يده زخرفها وأبدعها .. وضاعت مع الرملة .. فلا تضيعن من هذه المذكرات .

وهناك هذه الفتاة الصغيرة التى اصيبت بشظية كبيرة فى صدرها .. وجاءت فى النزع الاخير .. وأزلت لها أضلاعا ثلاثة ثم اغلقت صدرها . وتعهدتها عناية الله وتعهد الزميل خطاب بالادوية فشفيت . بعد أن أيقن أهلها انها ماتت فتركوها ورحلوا .. حتى ذهبت الصدفة

تخبر اباها انها حية فى عنفوان الحياة .. فجاء هرولة . وكان لقاء ياله من لقاء .

والاخوات الثلاث .. وكان بالمستشفى عندما تسلمتها من نديم باشا بضع من الفتيـــات . ترأسهن كبراهن الانسة ليندا وهى انثى ثرثارة جمة النشاط والحركة بطريقة تثير التمرد فى نفوس الرجال المصريين .

وذات يوم وجدت واحدة منهن جالسة فى حجرة المعاون .. فأحضرت الجميع وقلت لهن ان حرصى على سمعتهن يجعلنى لا اطيق أن أسمع عنهن كلمة ســوء تقال بالحق أو بالباطل .. وانا لذلك اختار لهن أن يقرن فى بيوتهن .. وذهبن . ولم يكن ممرضات بل ولا واحدة منهن كانت تعرف أن تقيس الحرارة . وانما كن من هذه الزحمة التى أقحمتها اللجنة القومية على المستشفى . وكشرت اللجنة القومية عن ناب فكشرت عن نابين . فهدأت اللجنة ولم أر منهم أحدا فى المستشفى من بعد .

ويأتى بعد ذلك خبر الاخوات الثلاث .. « ر » و «س» و « م » وكانت « ر » تعمل بالمستشفى .. بعـــد أن تركتها « م » بعد حادث غير لطيف . اذ ترك لها أحـــد موظفينا خطابا غراميا فى معطفها .. وشاء سوء الحظ أن تضع يده الخطاب فى معطف اخر ظنه معطفها . وكان ذلك قبل مجيئى وسمعت عنه من بعد .

ولما فصلت البنات التسع جاءتنى « م » تمشى على استحياء . ومعها عريضة مرفوعة لمقـــام جلالة الملك فاروق . كان أبوهن من زعماء الثورة وفقد ماله فيها ثم فقدته أسرته . وبناته كثيرات يصـــغرهن ابن واحـــد صغير .. وهن من خيرة الاسر الفلسطينية وتريد « م » ان تعمل بالمستشفى .

وكانت « م » وسطاهن ولكنها ارجحهن عقلا وأبلغهن حديثا وأوفرهن جمالا . ذات ذؤابتين طويلتين تثنيهما على كتفيها . وأحسنت شرح ظروف الاسرة .. فأمرتها أن تذهب هي لمساعدة امها فى البيت وقبلت أن تعمل اختها الكبيرة « ر » فى المستشفى .. فهى أقل جمالا وأكثر امانا .

ولما صار فى المستشفى قسم للحريم والاطفال ، فى الطابق الذى أقيم فيه ، كانت « س » الصغيرة الهادئة تأتى لتعاون « ر » .

وجاءتنى الام شاكية شاكرة .. وهى ارملة لبقة تحسن الحديث .. وتكررت زياراتها لى مع بناتها .. كما تكررت زياراتها لى مع قريبات لها أخريات لم أرهن .. لاننى كنت أقضى الزيارة كلها مطرقا أسمع بأذنى ولا انظر بعينى .. ازن الكلام أى وزن .. ولا أنطق الا بمقدار .. واذا تبسطت ففى وقار يستحيل على أحد أن يفك عقدته . وكنت فى الرملة كمحور الميزان لا يميل ولا يتحول .. ومن حوله الكفات تعلو وتهبط .. أو تهبط وتعلو .

واطنبت الام فى شرح الحال . ووجدت واجبا أن أطمئنها على أن المادة ليست كل شىء . وأننى أقرها على أن التربية وحسن الادب هما للبنت خير من المال والغنى. وتعمدت أن أقول لها اننى لو لم أكن متزوجا لما وجدت غضاضة فى أن أختار لنفسى واحدة كمثل بناتها . ودعتنى الامانة والوقاية أن أخبرها أننى متزوج .

وفيما بعد ، علمت أنها راحت تسأل خادمنا أحمد ان كنت أنا متزوجا حقا .. وتستحلفه أن يقول الصدق .

وفيما بعد .. اضطررت ان افصل « ر » .. الكبيرة الطائشة ..

وفيما بعد .. اضطررت كذلك ان افصل « س » .. الصغيرة الهادئة .

وكنت محقا . وكنت لبقا . فلم احرج الاسرة او اجرحها .. ولكننى أبعدتها وهى تحفظ الود والشكر..

وفيما بعد .. جاءتنى « م » وزوجها ابن عمها زائرين شاكرين ..

ثم لم أسمع عنهم من بعد ذلك شيئا .. الا ان واحدا من الناس قد شاهدهم فى رام الله أيام كنت بها .

ولست أود أن أضيع وقتا وورقا فى الحديث عن شخصيات .. فلأمر مرا على « خورى » الرملة .. الرجل الذى يتربع على عرش الدير العتيق المقام فيها .. والذى توسمت فيه الطمع والجشع والهوائية وكشفت الايام فيما بعد عن صدق توسمى فيه .

ومن حق الوفاء أن أختم هذا الفصل بذكر شهيدينا محمد عزب وبلال المرضين بالمستشفى . وكانا أهدأ الجميع وأطيبهم . ولم أشاهدهما منذ غادرت الرملة لاننى عدت فوجدتهما فى أسر اليهود بها .. وفيما بعد حاول ثلاثة الهرب .. فأتانا فى رام الله واحد منهم .. أما الباقيان فقد قتلهما اليهود .. وكانا محمد عزب وبلال ..

وعندما عدت للقاهرة حين شاء الله لمهمتى فى فلسطين ان تنتهى ، لقيت أخت محمد عزب فى جمعية الهلال الاحمر تستخبر عن أخيها ..

وكان صغار الصعاليك من الموظفين يدفعونها فى غلظة وخشونة .. ويقولون لها أليس هو الذى تطوع ، وهل

اتينا به رغما عنه ؟ .. اما كبارهم فلم يكن لها اليهم من سبيل . كان من دونهم حجاب وابواب ونفوس قاسية تجهل الرحمة وان زورت مسوحها .

عشنا فى الرملة ..

وعشنا معها منذ كانت آمن مكان فى فلسطين حتى غدت اخطر مكان بها .. وشهدنا مصارع القرى من حولها .. واستحكام الحلقة اليهودية واقترابها منهـــا رويدا . ووضعنا مع المدافعين خطط الدفاع .. ثم شهدنا الرملة تدافع عن نفسها برجالها السبعين .. وشـــهدنا فراغ الذخيرة منهم حتى أتاهم المائة والخمسون من بدو شرق الاردن . وبهذا العدد الضئيل ثبتت الرملة قرابة شهر وتكسرت من دونها أمواج وأمواج من قوات اليهود وهى كالصخرة الصماء لا ينال منهـــا الموج . وكانت الرملة مقبرة للمئات بل للالوف من اليهود المهاجمين .. وبين الفينة والفينة يأتى لنا الصليب الاحمر بقوائم فيهـــا مئات من اليهود « المفقودين فى جبهة الرملة » يحسبهم قومهـــــم أسرى .. وليس فى الاسر منهم الا عشرات معدودات . أما الباقون فكانوا فى أسر الموت !

وعاشت الرملة فى أمجادها .. تخط كل يوم سطرا من المجد .. وتسجل كل يوم فخارا وانتصـــارا .. حتى كانت الهدنة !!

كانت الهدنة لنا أيام راحة بعد مالقيناه من جهد . ولم تتقدم الينا الهدنة بابتسامة .. ولكن تقدمت لنا بثمان وخمسين عملية جراحية كبرى .. انجزناها بعد مجهود يقارب حد الاعجاز .. ثم ابتدأنا هدنتنا نحن . وكان العمل هينا لينا يعطى فرصة للسمر فى حفلات

تقام وبغير حفلات تقام . ويعطى فرصة للسهر الصيفى البديع نقضيه فى الفكاهة والسير فى الخلاء وتدبير المقالب .. ولولا روتين الجبن والبصل وقلة الماء والغذاء وحرارة الجو والحنين ، لكانت الهدنة نزهة جميلة .. بل كانت فعلا نزهة جميلة رغم كل هذا . وكانت أغنيتا سلوا قلبى ونهج البردة روتينا ليليا .. ووجدنا للزميل خطاب عودا فشاركت الاوتار الحناجر .

وتبدلت نظرتنا الى البدو الاردنيين ابان الهدنة ايما تبدل . ان هؤلاء الناس الذين كانت تشغلهم الحرب لم يستطع أن يشغلهم السلام . وبدات السرقات فيما بينهم وفيما حولهم . وراح باشاواتهم الحفاة يثقلون كاهل البلدية بطلب الدخان والشاى لاتباعهم . وكانت الهدنة مكسكة مملولة فرحلوا الى ديارهم للحصاد .. « ولطشوا » منا ثلاثين بطانية من ستين كانوا قد استعاروها الى اجل محدود !

وكنت ازور نادى الجوالة يوما فجاء احدهم مهنئا .. لقد وصلت الى الرملة واللد حامية اردنية قوامها مائة وثلاثون جنديا وضابطا بقيادة الصاغ ادريس بك . وهلل الناس وكبروا . ان الرملة قد قاومت الغزو اليهودى الجبار بقوات قليلة غير نظامية فقيرة فى العدد والعدة ! فكيف وقد وافتها طلائع الجيش الاردنى النظامى .. ولديها فيما لديها دبابات ومدافع ومصفحات .. أليست الرملة تصبح اذن فى حصن من الامن حصين ؟ بلى ! ان الرملة تصبح اذن فى حصن من الامن حصين !

وبدات الرملة واللد تنتعشان . ونشطت الاسواق بعض الشىء .. وازدهرت المعيشة مرة أخرى . وكانت الاقدار تحيك خيوطها .

وكانت الهدنة مع ذلك أكبر غلطة ارتكبها العرب فى تاريخهم الحديث منذ عدة قرون مضت ولعدة قرون ستأتى !!

كان العرب ظافرين . وكان فى الامكان أن يأخذوا فلسطين كلها فى أسبوع . ومن الرملة كنا نسمع باستمرار مدفعية الجيش المصرى تضرب رخوبوط التى كانت تفصلنا عنه . ومن فوق الدير كنا نرى الحرائق التى يشبها الطيران المصرى فى تل أبيب !

كان بيننا وبين تل أبيب اثنان وعشرون كيلومترا . ومعنى ذلك أن اللد والرملة كان ينبغى أن تكونا ركاز الهجوم المباشر على تل أبيب . وفى اللد مطار وفى الرملة مطار . ولو ركبت مدفعية ثقيلة عندنا لكانت تل أبيب فى مدى اصابتها .

ولا يعقل لدى أن عقلا ما يستطيع أن يسهو عن اللد والرملة وموقعهما الحربى الممتاز .. فكان عجيبا الا تتخذ الاهب وتعد العدة . ولو بدأ الهجوم على اليهود من الرملة لراحت تل أبيب فى ثلاثة أيام .. وراحت وراءها اسرائيل .. المزعومة .

واحتج الساسة بتدخل الغرب .. الغرب الذى لا يؤمن الا بالامر الواقع .. والذى أعطانا فرصة قدرها شهر لنجعل الامر الواقع كما نشاء . وكنا نستطيع .. ولكننا لم نشأ !

ومرة أخرى خافت الدول العربية على الامبراطورية الواسعة أن تنتقص .. وعلى الاستقلال الغالى أن يغتصب .. وعلى المستوى العالى أن ينخفض ! فأذعنت للغرب .

كنا فى الحرب رجالا . وفى السياسة عيالا . ومع ذلك

خرجنا من حلبة الحرب لندخل حلبة السياسة . وقاتل الله الغباء !

وفى الهدنة لعبت السياسة دورها فلعبت بنا فيما لعبت !

وأبرمت اتفاقات ووضعت خطط ودبرت مكائد . واستعد العدو أيما استعداد .. بعد أن أنقذته الهدنة من هزيمة واهمة .

وملأ الانجليز زنبركات الدمى .. ورسموا للاصنام وجهتها .. ورتبوها على خشبة المسرح .. واختفوا هم قبيل رفع الستار ..

ورفع الستار !! وانتهت الهدنة دون اتفاق . وعاد الفريقان الى الحرب من جديد . فلنرجع الى اللد والرملة .

.. ففر العرب خفافا الى الحرب نشيطين الى اللقاء .. وكانت تملؤهم الحماسة والثقة .. أليست معهم قوات الجيش الاردنى ودباباته ومدافعه ومصفحاته .. وحملوا على اليهود المهاجمين حملة كاد ينسحب لها اليهود .. ولم يفطن الناس الى أن القوات الاردنية لم تكن تشترك فى المعركة .

ولم يصدق الناس أعينهم فى بادىء الامر ..

ان القوات الاردنية كانت تنسحب . ولم تكن تطلق النار الا لكى تؤمن انسحابها . وكانت ضربة تقصم الظهر .

ورفض المنسحبون أن يتركوا ولو جانبا من الذخيرة.. فلم تكن هناك أوامر ! واحتدمت المعركة من جديد .. وبذل الرجال طاقات الرجال والذخائر تتناقص .. وبذلوا جهد المستميت ليجبروا صدع الجبهات التى كان

فيها المنسحبون .. وراحت بنادقهم تجيب جاهدة على مدافع اليهود ورشاشاتهم . ولكن للطاقة حدودا .. وبدأت المقاومة تنهار رويدا رويداً .

ولكن ماهذا ! ان مصفحات عربية تعود الى اللد . واذن فان هناك نجدة آتية ! وارتفعت الروح المعنوية والتهبت عزائم الناس من جديد واندفعوا الى المعركة بعزم حديد .

وجاءت المصفحات . ولكنها جاءت لتحمل الحاكم الاردنى وتعود أدراجها . وأخذت المقاومة تتلاشى من جديد ..

ودخلت المصفحات اليهودية اللد والرملة . ولم يكن الجند داخل الابراج ولكن على ظهور الدبابات .. وكانت الدبابات مزدانة بالاغصان والزهور .. وكأنما كان الامر مرتبا ومجهزا . ولم لا ؟ ألم يكن أجلا مضروبا وموعدا معلوما ؟ بلى . وايم الحق . لقد كان !

وكان بدء دخول اليهود فى اللد .. ثم دخلوا الرملة وسلمتها لهم لجنة للتسليم . وريع الناس .. وانطلق اليهود فى كل مكان ولكنهم احكموا الحصار حول مخارج المدينتين . وفر المحاربون من قبل حيثما وجدوا سبيلا .. ولكن اليهود سرعان ما تمكنوا من المخارج لا ليمنعوا خروج أحد .. ولكن ليمنعوا خروج شىء !

وكان اليهود ناسا عمليين ..

اخذوا جميع الشباب والقادرين على حمل السلاح أسرى حرب .. أما النساء والشيوخ والصغار فلم تكن بهم اليهم حاجة .

وتركوهم يخرجون بعد تجريد منتظم من كل مايملكون

.. حتى الدكتور بودوسيان ، الذى كان يملك كمية من علب السجائر .. لم يتركوا له سيجارة واحدة !

وخرج الناس .. ان سمعة اليهود الذين ذبحوا دير ياسين .. والذين احرقوا اربعين من الاحياء بالطيرة أو الناصرة لا اذكر ، لم تكن تشجع أحدا على البقاء .

وكان اليهود يعلمون أن هذه الزحمة البشرية ستكون عبئا على العرب . بل ستكون شاغلا يشغلهم عن حرب اليهود .

وفعلا . كانت هذه الزحمة البشرية هى التى سميت فيما بعد بالمهاجرين ثم باللاجئين . وهى التى مهدت لاختفاء القضية الفلسطينية الاصلية من الميدان . واصبحت المشكلة فيما بعد مشكلة اللاجئين لا مشكلة التقسيم .

وخرجت القافلة من اللد والرملة .

وكنت فى استقبال القافلة فى رام الله .

كان على هذه القافلة من الشيوخ والنساء والصغار ان تقطع المسافة سيرا على الاقدام .. بين الجبال .. وفى حر الصيف اللافح .. بغير زاد ولا ماء ولا أمل .

وكان فى القافلة عائلات عريقة وبيوت محترمة .. لم تعتد الا ركوب السيارات الفاخرة ولم تألف الا حياة الترف والنعيم .

كان من بينها عائلة الدكتور راسم الخيرى . الذى صار لنا أخا وصديقا حميما .. وكان عليهم ان يسيروا كما يسير الناس .. والظروف لا تحابى ولا ترحم . ويضاعف الشقاء الملاحق انه جاء بعد نعيم سابق !

واعيد هذه المذكرات الا تسجل للدكتور راسم الخيرى

المثلَ العظيم الذى ضربه والموقف الكريم الذى اتخذه ! انه استطاع أن يخرج من اللد والرملة ويصـــل الى « القباب » .. وكان فى وسعه أن يستأنف السير .. ولكنه ذكر أن فى المستشفى عشرات بل مئات من الجرحى .. وخطاب المصرى باق جوارهم . وهو وحده يؤوده أن يقوم بعبئهم .. فرجع الدكتور راسم الخيرى طائعا مختارا ليقوم بواجبه كطبيب . رجع ليدخـل القفص طائعا مختارا .. كانت هناك رسالة انسـانية عليه أن يؤديها .. ولو كانت فى القفص !!

رجع الزوج والاب الى الرملة .. وترك القـافلة تسـير ..

وكانت القافلة تلفظ نفاياتها على جانب الطريق ! لقد كان الابن يموت على ذراع أمه فتضعه على جانب الطريق وتسير مع القافلة ..

وكان الجوع والعطش والضعف يقتل ناسا من أفراد القـافلة .. كانت تتركهم على جانب الطـــريق .. وتستأنف المسير .

وزحفت الجيوش على رام الله ..

ولم تكن جيوش اليهود هذه المرة ..

ولكنها كانت جيوش اللاجئين . وكان زحفها أفتك بالقضية من زحف جيوش اليهود . وقاتل الله من كان السبب !

لقد كان مصرع اللد والرملة مصرعا لألوف من الناس .. ووداعا لماض مستقر ، وقذفا الى مستقبل مجهول يبدأ باليأس ولا يعلم اين ينتهى ولا أيان .

ولكنها كانت مطامع فرد ضيع فيها مئات الالوف من

الناس . أن التمثيليـــة كانت من نوع الدراما . كانت مأساة .. ولقد كنت انا فيها .. كنت ماثلا لا ممثـلا على خشبة المسرح .. أؤدى رسالتى التى أتعشقها .. رسالة الطبيب !!

وجمعتنا مرة مأدبة العشاء فى مستشفانا بالسيدين محمود علاء الدين ومحمود الكيالى رئيسى بلديتى الرملة واللد . وحكيا لى كيف أن وفدا من المدينتين يضمهما ويضم الشيخ سـليمان التاجى الفاروقى امام الرملة وغيرهم ، ذهب يستجير باسم المدينتين بالملك عبد الله ابن الحسين . وفيما هم جلوس بقصر رغدان اذ دخل الملك عبد الله وهو يردد ، لبيك يارملة .. لبيك يالد .. لبيك يارملة .. لبيك يالد ! » ولم يشأ أن يدخل مع احد فى بحث أو نقاش ! حتى اغتنم الشيخ فرصـــة فخاطبه قائلا : ان عشرات الالوف من رعيتك ياسـيدنا قد فقدوا المأوى والزاد وقعدوا فى العراء لا يجدون فراشا ولا غطاء ولا يجـدون رزقا ولا موردا للرزق .. وهم يتطلعون اليكم ويرجون منكم انقاذا سريعا يدفع عنهـم الهلكة ..

وكأنما شق على جلالته أن يسمع هـــذا الكلام .. فقال : « ما أبرد هذا الكلام .. أفبعد أن أقول لبيك يارملة .. لبيك يالد ، يقال مثل هذا القول » . وانسحب الوفد . وأدركهم مناد يستدعى صاحبينا رئيسى البلدية ! وقالوا للملك عبد الله : انه واعظ الرملة وامامهـــا ياسيدنا » .. فرد على الفور : « وكأنما يحسب نفسه على المنبر .. انما أضاعتكم هذه العمائم وأمثالها منـذ ثلاثين عاما !! » يشير بذلك ويعرض بالســـيد امين الحسينى مفتى فلسطين !!

# فى مستشفى رام الله

وكان مقر مستشفى الهلال الاحمر المصرى فى رام الله مدرسة الفرندز للبنين .. وهى دار جميلة عظيمة اشبعت فى روح الطبيب وروح الفنان معا . وهى مقر مندوب الصليب الاحمر كذلك . وطالما أخذت بجمالها وسحرها عندما كنت أجىء الأقابل كورفوازييه مندوب الصليب الاحمر . لذلك كنت فى نشوة عميقة - استمرت أكثر مما توقعت - عندما وجدت أن دار الاحلام والامانى هذه أصبحت دارنا ومقامنا . وكان يرفرف فى أعلى الدار علما الصليب الاحمر والهلال الاحمر . الامر الذى ناقشنى فيه من بعد كل من كورفوازييه وفازل مندوبا الصليب الاحمر لكى أنزع علم الهلال .. متعللين بتعاليل واعاليل تافهة يستران بها بقية تعصب ماكنت أتوقع أن ألقى له أثرا على الاقل فى هذه الظروف . ورفضت طلبهما المتكرر والمهلة التى حدداها . وبقى علم الهلال . ووددت .. لولا السرف فى الثرثرة .. أن أتحدث عن جمال البناء وجمال الموقع وجمال المنظر وجمال .. وجمال كل شىء !

صفوة القول أننى وصلت المستشفى .. وقابلنى الاخ أحمد الملط بالعناق والقبلات .. وقابلتنى الست فايدة بالمصافحة الحارة والشوق الزائد .. وقابلنى من بقى

بالاعين المفتوحة والنظرات المتفحصة والتنادى الخافت لرؤية الطبيب المقبل الجديد .

وبعد دقائق كنت فى زى المســـتشفى ونزلت لغرفة العمليات . ووجدت فتاتين سألتهما عن اسميهما بعد أن عرفتهما بى .. كانت الكبرى النحيفة حمراء الشـــعر تدعى أولجا .. وكانت الاخرى هى نعمه الصغيرة النجيبة .. التى اسجل هنا أنها تلميذتى التى مرت بهـــا ساعة محنة فلم تنس فيها تعاليمى . وجاءنى من يقول ان تلميذتك حفظت تعاليمك . ولا أملك سرد التفاصيل .

ولا أود أن يفوت التسجيل أن الاخ أحمد الملط وسائر الزملاء كانوا يسموننى المسيح !!

ولا أذكر ما الذى كان يدور العمل فيه ساعتئذ فى غرفة العمليات .. وبحثوا عن منشار للحقن جاهدين . وأخرجت المنشار من داخل ياقة قميصى اذ كنت أقوى به حرف النسيج . وقالت الاخت أولجا . انت رجـــل ذكى جدا أيها الطبيب .

وما كان أصدق نظرتها فى . ومن شاء فليسل أحمـــد الملط . فهو ادرى بذكائه بذكائى .

وكنا فى رمضان .. وحان المغرب فنزلنا الى غرفة الطعام اللطيفة الظريفة .. مائدتان احداهما لنا والاخرى للفتيات . وأناقة ورفاهة على غير ما عهدنا فى الرملة .. وخدمة ممتازة مرتبة .. وكان يتحالف جوع الصائم وترتيب الخادم على .. حيث لم أتعود هذا الاكل البطىء المرتب . وألوان من الطهى والفاكهة كانت بالنسبة لى مفاجآت .. وعلى المائدة ناقوس صفير نحاسى على هيئة شيخ معمم جالس ، تنادى به الخادم آنا وتتندر به مع أحمد الملط آناء .

وصعدت أستريح قليلا فى غرفتى الانيقة الجميلة .. أى والله أنيقة جميلة . بعد هذا النهـــار الشاق الذى استقبلته فى القاهرة وودعته فى رام الله .

ونزلت مرة أخرى . وكانت السهرانتان وداد وافلين قد جاءتا .. وأحضرتا لى رضيعا وجدوه على الطريق يعالج ثدى أمه الميتة . ولففت على خنصرى قطعة من القطن . وكنت أغمسه فى محلول السكر وأضعه فى فم الطفل الذى كان يمتصه فى نهم .. حتى استطعنا أن نوجـــد له حلمة ركبنـــاها على زجاجة لتكون ثديا صناعية .

أما الطفل فقد سلمناه من بعد للاخت « كالت » من الصليب الاحمر .. حيث رقد ومعه زميلان له من بعد . وكان منظرهما ظريفا وقد استلقوا متجاورين تفصلهم المخدات التى تسند لهم ثلاثة أثداء صناعية . وفيمـــا بعد تبنى أحد الضباط واحدا منهم ، وأرسل الاخران الى سويسرا فى كفالة الصليب الاحمر .

وفيما بعد .. حينما طلب منى المســـتر جونز مدير المدرسة أن القى على طلبته محاضرة صباحية ، ذكرت لهم فيما ذكرت قصة هذا الطفل . وحكيت لهم هــذه القصة الرمزية التى قرأتها منذ سنين طوال . اذ يروى ان ملكا قابل ملك الموت فسأله عن الروح التى قبضها فتأثر لها وأشفق وعطف . فاذا هى امرأة ضلت الطريق فى صحراء وعلى ثديها رضيعها . وكان أمر الله مفعولا فقبض روحها وترك للطفل ثديا صامتا فى صـــحراء كالقبر الفسيح .

ثم سأله عن روح قبضها فأحس رهبة وعظمة وجلالا

.. فوصف ملكا مهيبا عادلا يحف به الايمان والعظمة ومحبة الناس .. فتخطى اليه ناسه وحراسه وقبضه وهو فى رهبة من عظمة الانسان .

قال الملك فاعلم ياملك الموت أن هذا الملك الكبير هو ذلك الطفل الصغير !!

وقلت لهم ان فلسطين تشبه ذلك الطفل .. وقد خانته اثداء سبع أمهات هى الدول العربية السبع .. التى ظن شعب فلسطين فيها الحياة فلم تقدم له الا الموت والذل والتشريد .

ثم قلت لهم ألا ييأسوا مع ذلك من رحمة الله التى يصيب بها من يشاء .

وساهمت فى التدريس حينما استؤنفت الدراسة فى المدرسة بعد العطلة الصيفية . وكانت هناك أزمة مدرسين . فكان على أن أقوم بمقرر الكيمياء للمتركوليشن وقمت به ما وسعنى الجهد .

وأهدانى المستر جونز الشارة الخاصة بالمدرسة فقبلتها شاكرا .

والمستر جونز أمريكى من جماعة الكويكرز وهو مدير المدرسة .

وزوجته سيدة انجليزية تبدو أكبر منه بكثير . وتعمل مدرسة بالمدرسة . ولهما بيت أنيق بجوار المدرسة محاط أيضا بالحدائق الجميلة التى كانت تكتنفنا من كل مكان فتجعل كل مكان ركنا فنيا جميلا .

وكان المستر جونز والمسز جونز منسجمين .. رغم ان الزوج كان يمثل الشخصية الامريكية فى نشاطها وسرعتها فى الكلام والعمل وبعض الحب للتقاليع .

والرجل فى الخمسين من عمره ذو شعرات بيضاء قليلات فى رأسه .

ولكنه كان كما يقول عن نفسه : فى الثلاثين كنت أبدو كالاربعين . وفى الخمسين صرت أبدو كالاربعين أيضا .

والواقع أن المستر جونز قد أحسن وفادتنا فى مدرسته التى صارت مستشفى . وكان دائم العون لنا . وأعطانى مفتاح المعمل لكى أقوم بالتحليلات المختلفة للمرضى كما أعطانى مكرسكوبا . وطالما أبدى اهتمامه بانتسابى للاخوان وطلب منى أن أحدثه عن الدعوة . كما كان يهتم بحديثى عن المنهج الروحى الذى اجتزته ويعقد المقارنة بينه وبين بعض تقاليد جماعة الكويكرز . وكان بين الفينة والفينة يدعونى الى بيته لاتناول معهم الشاى أو العشاء . وكان هو وزوجته يأتنسون بى كثيرا لان لهما ولدا وحيدا اسمه ريتشارد فى مثل سنى وملامحى يدرس فى أمريكا .

والمسز جونز سيدة فاضلة . بيضاء شعر الرأس . على جانب فائق من الرزانة والاناة فى الحركة والحديث . وما كانت البسمة تفارق ثغرها أبدا . وكانت محبة للفكاهة والمرح دون أن يزايلها هذا الوقار الفائق .

هكذا كان الزوجان . وكان يؤمهما كثير من تلاميذهما السابقون سيدات ورجالا فيجدون منهما الترحاب والحنان والرأى والمشورة . وهل أسعد للمعلم من أن يكون تلامذته أبناءه ؟ ولم أر المستر جونز مكتئبا أو قلقا قط الا عندما استدعانى الأسعف كلبه العزيز المريض . وذهبت مسرعا ولكنه كان للاسف فى النزع الاخير ولم تجده اسعافاتنا .. وحزن عليه المستر جونز . وأودعه مقره الاخير فى مشهد تمثيلى مؤثر .

وبعد أيام قلائل كان المستر جونز يجرى بصحبة كلب آخر جديد جلبه واسماه تيب . وكان ظاهر المرح . وذكرنى بالزوج الذى يدفن زوجة ويستقبل أخرى . وكانت المسز جونز تكتفى من كل هذا بالمشاهدة الوقورة والبسمة العتيدة وكأن الرجل ابنها الصغير .

وكان العمل الطبى فى مستشفى رام الله ممتعا . كانت المدة التى قضيتها فى الرملة فى الجراحة الحربية بواردها الضخم من الحوادث المتباينة قد وثقت الصلة بين أيدينا والمشرط والخيط والابرة وأنسجة الجسم المختلفة .. فكانت تمهيدا طيبا للعمل فى رام الله .. الذى كان معظمه جراحة مدنية نظرا لقيام الهدنة ولازدحام المنطقة بالمهاجرين اللاجئين . ووجدتنى يوما أمام حالة فتق مختنق . فأجريت لها جراحة وشفاها الله . ثم قلت لنفسى كيف أقدر على الفتق المختنق ولا أجرى عمليات الفتق العادى . وازدحمت قائمة عملياتى — اللستة — بعمليات الفتق . ووجدتنى أجتاز الجراحة فى سهولة ويسر وتوفيق ، فكانت البواسير والنواسير واستئصال اللوزتين وعمليات الفتق المختلفة وجراحات الاوتار والاعصاب .. وكانت الولادة بالجفت الاولى لى فى رام الله ، والزائدة الاولى لى فى رام الله ، والجراحة القيصرية الاولى لى فى رام الله . وازداد عملى ولازمنى التوفيق من الله .. واجريت عملية استئصال البروستاتا فى جلسة واحدة ، فى نفس الاسبوع الذى توفى فيه عم رئيسة الممرضات اثر عملية بروستاتا اجراها فى القدس .. وشفى الله مريضى فكان شيئا طيبا .

وكانت تزورنا بين الان والان طائفة من الزملاء الفلسطينيين ، فكنت أمر معهم على المرضى . ولما جئنا

لمريض البروستاتا هذا قلت لهم ، انني الان أفضل استئصال البروستاتا فى جلسة واحدة مادامت وظيفة الكلى جيدة . ويندهش الزملاء فأقولى لهم : وهذا هو المريض . فيجدون الرجل فى صحة جيدة .. وأتواضع انا تواضع المسرور .

ووسعنا المستشفى بقسم للامراض الباطنية ، وقسم لامراض النساء والولادة ، وقسم للعزل .. غير أقسام الجراحة والعيادة الخارجية .

والواقع أننى كنت فى رام الله أشعر أننى على غاية من التوفيق كطبيب . وكان عملى فى العيادة الخارجية بعض الايام يستمر حتى الرابعة مساء . وأسهو عن الغداء حتى تجىء خادمتنا الفلسطينية « ثلجية » فتأخذنى من الناس قسرا حتى أتغدى وأعود . وكان أميز ما فى خادمتنا هذه أنها كانت كأهل الريف فى فلسطين لا تنطق الكاف الا شينا مثقلة .. فكنت تسمع منها المشوه « المكوه » والشوتشه « الشوكه » وحيرتنا لفتها ردحا من الزمان .

ورغم الجراحات والعلاجات فقد كنا نرفض أى أجر أو هدية .. فمن أتى بهدية ألزمناه أن يفرقها بنفسه على المرضى .

وحتى لما كان بعض الزملاء الفلسطينيين يأخذوننى للمشورة فى بيت المريض كنت ارفض أن أقبل أى أجر.. وأقول له ماجئنا بلادكم لنأخذ منكم أجرا .

وبالرغم من هذا فقد كنت أسمع أن مسلك بعض الاطباء الفلسطينيين المحليين ، وبعض الصيادلة ، كان فى غاية القسوة والاستغلال بالنسبة للمرضى وهم من اللاجئين المعدمين .

بل إننى جاءنى عمدة احدى القرى مصابا برصاصة

فى بطنه اطلقها عليه جندى من جنود الجيش العربى .. وقد وصل فى الليل يصحبه زميل فلسطينى . وكان الزميلان أحمد الملط ومحمد العمارة قد انقلبت بهما السيارة ذلك اليوم فلزما الفراش . وساعدنى الزميل الفلسطينى فى العملية التى أجريناها على ضوء لمبة الغاز .. ثم سمعت فيما بعد أن الطبيب قد أخذ من المريض ثلاثين جنيها قبل أن يصحبه الى . ومن يدرى لعله أوهمه أنه أعطانى منها جلها أو كلها .. واضطررت لان أضع على باب المستشفى لافتة كبيرة مكتوب عليها : ليكن معلوما ومفهوما أن العلاج والدواء مجانى بهذا المستشفى .

ولم يكن عملنا كله جراحة مدنية . بل كانت هناك حوادث كثيرة فيما بين العرب واليهود .

وحوادث أكثر منها فيما بين العرب بعضهم وبعض .

وفى غمرة هذه الحوادث أجريت ـ على غير فكرة سابقة ـ حشد جروح الكبد المتهتكة بقطع من العضل. وكان الذى تعلمناه أن نحشوها بالشاش اذا لم نستطع حياكتها . وطبقتها فى حالتين عاشت احداهما . ولما رجعت لمصر ذكرت ذلك لاستاذ الجراحة فذكر لى اسم كتاب مكتوب فيه هذه الفكرة بالخط الرفيع فى أسفل الصفحة .

وفى غمرة هذه الحوادث أيضا جاءنا كاظم مصابا مرة اخرى . وكان فى هذه المرة قائدا للمتطوعين فى أحد مراكز الحدود . فنبتت فى ذهنه مرة أن يهاجم اليهود الذين أمامه فجأة وبدون أوامر من القيادة .. فهاجمهم وقتل منهم خمسين ، وغنم بنادق من الصنع المحلى

بتل أبيب ، وقد عاينتها فوجدتها أشبه ببنادق الاطفال، وكعوبها من خشب رخو بغير طلاء . ولكنها على كل حال مظهر نشاط وحسن تدبير من اليهود اذ كانوا يصنعون الاسلحة محليا بجانب ما يستوردونه من الخارج . كذلك أحضر كاظم بعض أوراق اليهود وخرائطهم .

ولم نستقبل كاظما كما استقبلناه فى مستشفى الرملة .. اذ لم تكن لدينا غرف خاصة وانما هو العنبر للجميع .

ولم تكن به اصابات .. وانما جاءنا يعرج متكئا على ذراعى اثنين من أعوانه .. فغادر مستشفانا بعد أيام.. ولم أره بعد أبدا . ولست أريد أن أتكلم عن العمل الطبى أكثر من هذا .. ولكن هناك حادثتين أرى أن أسجلهما .

الاولى حالة طفلين أخوين .. فى نحو العاشرة والثامنة من عمرهما .. جاء بهما أهلهما الى كسيحين .. ورووا لى أن اليهود هاجموا قريتهما ودخلوا بيتهما . وخبأتهما أمهما واحدا فى زير وواحدا فى صندوق . ودخل اليهود فذبحوا الام وانصرفوا . ومنذ ذلك الحين وهما كسيحان لم يخطوا خطوة واحدة . وفعلا كانت أطرافهما السفلى ضامرة من عدم الاستعمال .. ووصفت علاجا من فيتامين ب١ والاستركنين والبرستجمين والتدليك .. وما كان فى جعبتى غير هذا وشىء من الرعاية النفسية .

هذا ما كان من أمرى . وأما ما كان من أمر الله فهو انه شفاهما – لست أدرى كيف – وفى أقل من شهر كانا يمشيان .

والقصة الثانية لمريضين جاءا واحدا بعد الاخر . أكل

الاول ثمانين من ثمار التين الشوكي ويسمونه «الصبر» .. والثانى ستين .
وانهضم الجزء اللحمى من الثمار وتجمعت البـذور كلها فى الشرج وابت أن تتزحزح . ولم يجد معهـا الزيت أو الحقن الشرجيـة .. ولا حتى الملعقـة .. واضطررت فى المرتين أن أستخرج البذور باصبعى – فى القفاز طبعا – رغم ما كان يصيبنى أحيانا من رشاش .. وانما هو الصبر والاصرار والاناة والنفس الحلوة .
وانفجر فى وجهى مرة جيب المياه أثناء توليدى احدى النساء .. وكأنما كان مسددا نحوى فملأ السائل عينى وانفى وغمر وجهى كله .. وقابلت ذلك بثبات لم آت معه بأية حركة . ولم يكن ليخطر ببـالى أبدا أننى سأكون اخصائيا للولادة فى يوم من الايام .
والذى لفت نظرى هو الزيادة الواضحة فى عدد المواليد الاناث .. اذ كان يولد ذكر واحد مقابل كل سبع اناث او ثمان .. ومع ذلك فقد جاءنا شهر ولد فيه تسعة متتالون من الذكور استقبلتهم أنا جميعا .
وأدع الآن جانبا الحديث الطبى هذا .. وأخرج من المستشفى قليلا الى نواح فى رام الله جديرة بالتسجيل .. قبل أن أعود للمستشفى من جديد لأتحدث عنـه احاديث غير طبية !!

# بيت العميان

أو بلغة أدق منزل العمياوات ..

وكان السبب فى تعرفى به هو مارى الطيبة .. التى جاءت للمستشفى مريضة فاحتجزناها أياما حتى تحسنت . وكانت مارى فى نحو العشرين من عمرها .. ذات وجه وسيم هادىء كأنه البحر الساكن . وصوت فيه حياء وصفاء .. وكانت عندى موضع العطف والشفقة لانها كانت عمياء .

وكان الحياء والعماء صعوبتين أمام هذه الاخت الطيبة فى مستشفانا هذا .. لذلك طلبوا منى حين تحسنت تحسنا ملموسا أن أخرجها لان البيت أريح لها وأيسر .

ومرت أيام .. واتصلوا بى تلفونيا لأزورهم وأزور مارى فى بيتهم .. وفاتنى أن أذكر أن زوارها وعوادها لم يكونوا الا فتيات عمياوات .

واستقللت السيارة ليلا وذهبت حسب الوصف الذى أعطى لى ميما بيت العميان . الذى يقع فى طرف رام الله. وكانت الطريق خالية والليلة ظلماء لا مبرر فيها ولا هلال. حتى انتهيت الى بيت منفرد وسط هذه الاحراش لا جار له .

ولم يكن البيت بأنشط من هذا السكون الموحش الذى يحيط به . بل لم اشهد فيه ما ينم على حياة تدب . كانت الابواب والنوافذ مغلقة . وطفت حول

البيت فما لمحت بصيصا من نور . ولولا دقة الوصف ونور السيارة لما كدت أرى البيت نفسه .

وطفت مرتين ودققت الباب دقتين .. وكدت أيأس وارجع أدراجي حين سمعت صوتا من الداخل يقول من الطارق .. وأجبت .. صاح الصوت النسائى الحاد يقول لمن فى الداخل بالانجليزية : انه الطبيب .. الدكتور حسان .

وسمعت الباب يفتح وجاءتنى احداهن تمشى فى خطو ثابت .. وقالت بعد التحيات بالانجليزية : أعطنى يدك أيها الطبيب .

وأسلمتها يدى .. وكانت برفقتى الاخت افلين سمويل من ممرضاتنا . وقادتنى الاخت العمياء وسط هذا الظلام الدامس .

واعترانى شعور رهيب . أنا المبصر أسلم يدى لعمياء تسحبنى وترشدنى للطريق .. وتحذرني من درجات السلم وتصف الى الطريق يمنة ويسرة .. وحسنا خلال البيت حتى انتهت بى الاخت الى مقعد مريح جلست عليه .. وجلست الاخت افلين .. على مقعد آخر طبعا !.

وجاءت رئيسة البيت ولا أذكر اسمها . رحبت بى بالانجليزية أجمل ترحيب .

وقالت ان الفتيات سعيدات بزيارتك هذه وهن يتحدثن عنك حديثا كله خير .

وأنهن من زمن فى انتظار هذه الزيارة . وقالت لى ان الفتيات آتيات عما قليل وانهن كن يستذكرن .

ودبت الحياة ــ صوتيا ــ فى البيت . وبعد قليل جاءت

احداهم تحمل مصباحا زيتيا مسرجا .. استطعت به ان اتبين أننا نجلس فى صالون متوسط متواضع ولكنه أنيق . واستطعت ان ارى الرئيسة وهى عمياء فى نحو الخامسة والاربعين . ثم الفتيات الحاضرات واللاتى اقبلن بعد ذلك محييات مرحبات .

وانتابنى شعور الرهبة أيضا حينما أحضرن لى المصباح . انه أنا المبصر الذى احتجت للمصباح .. اما هن فقد كن غنيات عنه . فلما حضرت أنا أوقدنه من أجلى .. ومن يدرى .. لعلهن ساعتها قد أشفقن على !.

لقد كن يرحن ويغدين بين قطع الاثاث وخلال الابواب فى سهولة ويسر .. وما كان انسان يراهن على هذه الحال ليظن أنهن عمياوات .. وكأنما كن فى نهار دائم .. وكأننا نحن العميان كلما جن الليل وانسدل الظلام .. الا أن نسرج ونوقد مانستعين به على دفع العمى عنا نصف يوم فى كل يوم . وأحضرن لى شايا وبسكويتا . واخبرتنى الرئيسة أن البسكويت من صنع البنات .

وتحدثنا أحاديث شتى .. ثم قمنا لزيارة المنزل . وكانت بعض فتيات مايزلن فى غرفة الدرس يستذكرن دروسهن فى هذا الظلام الدامس . وانتهينا الى الاخت مارى فى سريرها فعدناها وسلمنا عليها .

واسترعى انتباهى أن البيت كان فى غاية النظافة والنظام وحسن الترتيب .. رغم ان العمياوات كن يقمن بأموره جميعا .. اذ لم تكن به مبصرة واحدة .

وكانت هذه من الفترات التى أرى فيها جديدا فعلا ..

وأنهيت الزيارة وكلى مشاعر وعواطف وأحاسيس . وخرجت من هذه المستعمرة العجيبة فأحسست أننى

اخرج من عالم الى عالم . من دنيا النهــار الدائم التى يتوهم الناس أنها دنيا الليل البهيم والظلام المقيم .

وزرت البيت بعد ذلك مرات . وصرت من يومهـا صديقا للعميان صداقة لا تنبعث عن الشفقة فحسب ، بل عن الفهم والادراك أيضا . ولاسجل هنــا اعجابى بمجتمعهم . وهو قطعا أرقى وانضج من مجتمــع المبصرين .

وما دمت أتحدث عن رام الله فلابد أن أتحدث عن صديقي توفيق خورى . والاسرة كلهـا كانت تسـكن المدرسة لان الوالدة الارمل كانت تعمل بها ، وتوفيق كان مدرسا ، أما أخوه فقد انضم للجيش العربى مترجما .. وكانت هناك غير اولئك اخت صغيرة لا أذكر اسمها الان . وكانت الاسرة قبل مجيئى تبذل العون دائمــا بحمل الفوانيس أثناء العمليات فى الليل أو النهار .. ولما وصلت تآلفت نفسى مع نفس توفيق ألفة سريعة وثيقة . حتى أن توفيقا صام معى اياما من رمضان . وبلغ من حسن الصلة بين توفيق وبينى أنه قرر أن يدع التدريس وأن يصبح طبيبا . قرر ذلك رغم الضيق المادى الذى كان واقعا فيه كل أهل فلسطين . ووضع خطة يذهب بمقتضاها الى لبنان ثم الى امريكا . وقد رحل فعلا فيما بعد الى لبنان ثم الى أمريكا .

ولست أدرى أين القى توفيق ولا متى .. فقد ارسلت اليه خطابا على أمريكا ردوه الى بعدم العثور عليه .. وهى قطعا حسنة من حسنات البريد الامريكى .. تذكر بجانب ماشهدته فى بعض البلاد الاخرى من التفنن فى تضييع الخطابات أو تأخيرها تأخيرا خياليا بلغ سنوات فى احدى المرات . وعلى قدر ماكان توفيق عاقلا فقد

كان أخوه الصغير نزقا رغم انه لما يكد يخطو عتبـــــات الشباب الاول . وليمر الحديث عابرا بالفتـــاة ج.ع الشاعرة .. والتي عملت ممرضة عندنا وقتـــا .. ثم جاءت بمريض مرة وانا بالعيادة الخارجية فما سمعت صوتها الا وكتبت لها ورقة أعطيتها للممرضة مارى التى كنا نسميها !!

وكان مكتوبا بالورقة : Mother mary - mother of nurrallah

Sister S - A is not welcomed in this hospital :

The only help we can offer is the medical one ...

Wehich we heartily hope she will never he in need of !»

وانصرفت الاخت وكان هذا آخر العهد بها .

على أن المذكرات تسجل اعجابها بالاختين كاتى وبربارا .. اللتين اشتغلتا بالتمريض عندنا مدة متطوعتين .. ثم غادرتانا الى عمان لتدخلا الدير وتصبحا راهبتين .. وقد استكتبتني كل منهما كلمة فى الاوتوجراف . ومازال بين الناس أخيار .

# فك خطاب

وكان أول ما فعلته فى رام الله أن قابلت كورفوازييه .. وأعطيته طلبا لليهود بالرجوع للرملة لان فيها مستشفاى ومرضاى وخطاب – وقلت له أن الربان مع سفينته مهما كانت الظروف . وكنت على علم بأن السادة فى مصر لن يهزهم أن خطاب وأعضاء البعثة من المرضين فى الاسر . وقد سموا طلبى هذا جنونا وانحيازا الى العدو .. ولكن كنت أراه ضروريا لان وجودى بالرملة كان فى اعتقادى لازما لخطاب ، حتى نجابه معا ما تأتى به الايام ، وعلى كل حال فقــــد جاء رد اليهود بعد وقت .. وكان

Dr Hassan not allowed to Kamleh

وهنا طلبت من كورفوازييه أن يطلب لى من اليهود لقاء مباشرا .. وفى يوم من الايام أخبرني باستجابة الطلب . وفى الصباح الباكر حملنى فى سيارة الصليب الاحمــر للقاء اليهود فى دير اللطرون .. فى المنطقــة الحرام بين العرب واليهود . ونزلت من السيارة فى الدير فبادرنى الدكتور هوخمان ضابط الاتصال اليهودى بالمصافحة قائلا : انت ولا شك الدكتور حسان . ومضى يخاطبنى بالانجليزية قائلا : ان الناس عندنا يروون قصصا عنك . ومضى يصف لى تفاصيل معاملتى للجرحى اليهود الذين كانوا عندى بالرملة . وذكر أن الصحف عندهم نوهت بهذا . ثم ذكر لى أن قواتهم التى كانت تهــاجم الرملة كانت لديها أوامر بالمحافظة على سلامتى وســـلامة

مستشفاى . ثم ذكر انه اول سـقوط الرملة ذهب للمستشفى ليقابل الطبيب المصرى الشاب ذا العينين الزرق والشارب الذهبى .

للمستشفى ليقابل الطبيب المصرى الشـاب ذا الاعين

والدكتور هوخمان شاب فى نحو السابعة والثلاثين .. يعمل أخصائيا للسرطان بمستشفى هداسا . وكان اللقاء والغداء فيما بعد فى جو تاريخى بين أروقة الدير وأقبيته. وقد امتنع الدكتور عن لحم الخنزير على سبيل المجاملة لى رغم انه محرم عندهم . وتكلمنا فى مسألة خطاب . وكيف أننى طلبت العودة الى الرملة حيث مرضـاى فرفض طلبى . وقد جاء دورى لاطلب حضور خطـاب لان الحاجة عندى أمس للمجهود الطبى نظرا لوجود مئات الالوف من المهاجرين . وقلت له ان المسألة مسـألة توزيع الاطباء حيث الحاجة اليهم ماسة . وأن المسألة مسألة انسانية بحتة ينبغى أن تنظر اليها الهيئـات الطبية العربية او اليهودية نظرة واحدة .

ولم يكن فى الامكان حسم المسألة فى اجتماع واحد . فان للرجل سلطات يرجع اليها . لذلك تكرر الاجتماع مثنى وثلاث . وقال اليهود إن عند السـلطات المصرية ثلاثة من الاطباء اليهود فى الاسر . وأعربوا عن تمـام استعدادهم لاعادة خطاب لقاء واحد منهم . وما كان اشد المرارة عندما قال كورفوازييه : ولكننى قرأت فى الصحف اليهودية بقرب الافراج عن البعثة الطبية المصرية « فأجاب هوخمان : يؤسفنى أن تكون الصحف السيارة مرجعك فى معلوماتك يامسيو كورفوازييه » . وساد وجوم تام وتوتر الموقف تماما . وكنت أعلم ان مجرد اثارة اهتمام السلطات المصرية بخطاب الاسير اصعب بكثير من اى شىء يخطر على البال أو لا يخطر . ناهيك بعملية استبدال

اسير بأسير .. ونحن لسنا من ضباط الجيش ولسنا فى القطاع المصرى اصلا .

وانعقدت على وجهى سحابة كآبة .. وقلت لهوخمان : نحن لم نجىء ممثلين رسميين للجيش المصرى . وانما نحن نتبع الهلال الاحمر ونندرج بذلك دوليا فى سلك الصليب الاحمر الذى ترتبطون بمعاهدته الدولية . وقد شهدتم كيف كان مستشفانا يموج بالجميع من رجال ونســاء واطفال .. محاربين وغير محاربين .. بل حتى اليهود الذين جاءوا مقاتلين رأيتم كيف عوملوا فى المستشفى عندما سقطوا جرحى . فهل تظنون أن المسألة مسألة قانونية بحتة ؟ أى قانون هذا الذى يقول بأن أعيد الى الاسير ماله وساعته وما يحمل من حلى ؟ وأى قانون هذا الذى يجبرنى أن أبذل العناية الطبية للاسرى ثم أتبعها بالتطمين والتأمين وتهدئة الخاطر بل والمجاملة فى الحديث والطعام والشراب . وأى قانون هذا الذى يدعونى لتعريض حياتى للخطر عندما يأتى الموتورون ممن فقدوا الابن او الاخ أو الاب ليثأروا من اليهود الذين عندى فأقف إمام غضبهم الذى فى صدورهم ورصاصهم الذى فى بنادقهم حائلا بينهم وبين مرضاى اليهود قائلا : انهم لن ينالوهم قبل العبور على جثتى ؟

اننى لم أستوح قانونا فى ذلك . وان كنت لم أخالف قانونا . وانما استوحيت الفكرة الانسانية الواسعة التى ينبغى ان يدين بها كل طبيب فى كل حرب ولما سقطت الرملة كان فيها جرحى فطلبت دخولها لولا رفضكم . واليوم انا محتاج لزميلى وأنتم تساوموننى عليه . وأنتم بذلك تصفعون هذه الفكرة النبيلة التى تبعتها .. وكنت

أحسبكم تحيونها وتشجعونها وتنفخون فيها .. فيالخيبة الامل .

وصمت فكان صمتا عميقا . وكان اطراق وسكون دام مدة حتى قطعه هوخمان بقوله : أيها السادة .. اننا نعيد الدكتور خطاب مجاملة للدكتور حسان لنريه أننا معترفون بالجميل . ونعيد له أيضا غرفة العمليات التى كان يعمل بها » . وانفجرت الجماعة بالتصفيق والتهليل . وراح فازل وكورفوازييه يهنئانى بحرارة .. وضجت القاعة بأصوات المرح .. بينما راح هوخمان يكتب رسالة بالانجليزية والعبرية لحاكم الرملة .. وقام فازل بالرسالة مسرعا الى الرملة . وصاح كورفوازييه : انك تصلح محاميا بارعا يادكتور حسان . وبعد زمن عادت السيارة وألفيت أمامى خطابا فاحتوانا عناق طويل وقال له هوخمان : ان لك صديقا عظيما يادكتور .. وتذكر أنه لولا صديقك هذا لما كنت هنا الان . هكذا قيل وأسجله غير خادش لتواضعى . والفضل كله لله .. وعدنا الى رام الله .. وسلمنى فازل فى المساء ميدالية الصليب الاحمر .

# وفك راسم

بمجىء خطاب بقى فى الرملة الزميل الحبيب الدكتور راسم الخيرى .. وكنا قد نجحنا فى تأمين سكن لاسرته الصغيرة فى ملحق مدرسة الفرندز .. الذى يقع عبر الطريق من المدرسة « المستشفى » وتضمه حديقة كبيرة كثيفة جميلة . هناك كانت تسكن ممرضات المستشفى ولكن كانت هناك فيللا صغيرة منعزلة سكنتها أسرة الدكتور راسم ، واستمر صرف مكافأته الى أسرته وهو أقل الواجب الى السيدة الشابة وأطفالها حتى يقضى الله امرا كان مفعولا .

وعائلة الخيرى عائلة كبيرة ولاشك أن اتصالاتها بجانب عزم اليهود على تصفية مستشفى الرملة كانت السبب فى اطلاق سراحه هو الاخر . ومرة ثانية يدعونى الصليب الاحمر الى دير اللطرون لاقوم بتسلم الدكتور راسم الذى أقبل وملامحه كملامح الغريق الذى طفا فوق سطح البحر فالتقط نفسه .. وعدنا الى رام الله .. الى منزل العائلة الكبير ولم تكن العائلة على انتظار .. وجاوزنا الباب الى ردهة خارجية ثم أخرى داخلية حتى لقينا طفلا صغيرا رآنا فصاح : « خالى راسم أجا » وانطلق الى الداخل فدبت الى البيت الحياة وكان ترحاب صاخب استأذنت على أثره .. ثم انتقل راسم الى السكن مع أسرته الصغيرة فى الفيللا بملحق مدرسة الفرندز . وما كان أهنأنا جميعا بذلك .

وامتد العمل بالمستشفى لطيفا وان كان كثيفا لا بسبب الحوادث ولكن لخدمة هذه الامة من المهاجرين التى ناهزت المائة الف .. كانوا يسكنون تحت الشجر وقد أقامت كل أسرة حول نفسها سياجا من الاسمال البالية . وابترد الجو واذا ليلة من الليالى تسفر عن موت ثمانية عشر طفلا من البرد ! مما جعلنى أقرر كسر تعليمات مشـددة لدينا خاصة بكمية من التبرعات مكدسة فى مخزن مغلق لا نفتحه الا اذا وصلت أوامر بذلك . وكانت فى مجموعهـا ثيابا واغطية فوجدت من السخف التحجر فى انتظار الاوامر . احصيتها احصاء وفى الليل خرجت تحت البرد والمطر المنهمر أجوس خلال تلك الكتلة البشرية على ضوء مصباح لوكس بالغاز .. وأزور كل عائلة وأعاين ما عندها ثم أكتب لهم وصفة بتوقيعى عليها رموز بالاحتياجات وعدد القطع اللازمة .. وأطلب منهم صرفها عند الصـبـاح من المستشفى .. كانت المعاينة مباشرة وفى الميدان ولا مجال فيها للتزييف ولا للادعاء .. وفعلت ذلك يومين بليلتيهما وفى اليوم الثالث جاءت الجمهرة وكل يسلم الوصـفة ويتسلم ماكتب فيها ثيابا أو ثياب أطفال أو بطاطين .. وكانت مظاهرة هتفوا فيها بحياة الملك فاروق .

كانت هذه العملية مريحة لضميرى تماما رغم أننى كنت اتوقع أن أتهم فى مصر بالتبديد أو الاختلاس ولكننى قررت انها تستحق كل ما قد ينتج عنها من مضاعفات . الذى ساءنى خلال العملية هو محاولة للتدخل من جانب الصليب الاحمر تدخلا واضح التحيز لا الى الفقراء الساكنين فى العراء بل الى آخرين يسكنون البيوت وليسوا شعثا ولا غبرا .. ويشهد الله اننى فى طوافى بالليل خلال المهاجرين

ماخطر ببالى أن أستفهم عن ديانتهم ولا عن أسمائهم .. وكانت جائزتى راحة الضمير وأن القوم رغم ذلك زاد احترامهم لى .

وأصابنى اعياء لدى اتمام هذه المهمة التى استغرقت ثلاثة أيام بلا نوم .. وأصبت ببرد شديد فى صدرى وحنجرتى فاحتبس صوتى .. وامتثلت للعلاج وكان من بينه أن تدلك الاخت الجا صدرى وظهرى بالزيت الدافىء وعمل كاسات الهواء . وسألتنى لماذا وقع عليها الاختيار لتنفيذ العلاج وقلت لانك كبراهن التى لا يسىء بها الظن احد .

كانت أقرب الممرضات الى الصديقتان افلين سمويل وو داد منصور . كانتا تسميان نفسيهما lumble sisters your hunble وكان فيهما رقى وذكاء وثقافة .. ولكن كانت اسرة المستشفى خليطا من الشخصيات .. وكان جانب من مجهودى منصرفا لحراسة خطاب الذى كنت أعد نفسى لدرجة كبيرة مسئولا عنه . ولا أود أن تكون هذه المذكرات شديدة التفصيل ولا احسب الانسان يحسن صنعا الى نفسه والى الاخرين ان سكب ذاكرته فى مذكراته كاملة كما هى .. هناك أمور لابد أن تقبر فى صدر صاحبها حتى تدفن معه فى قبره ويلقى بها ربه .. وقد تكون أمورا حميدة مجيدة بل قد تكون أقوى الذكريات وأجملها وأغناها بالدروس الرائعة ولكن لا يشفع لها كل ذلك بالظهور .

كانت الحياة فى رام الله جميلة .. ورام الله من اجمل البلاد وكم أتمنى أن أقضى بها صيفا . وكانت غرفتى فى أعلى المبنى كذلك تطل على منظر رائع . وطالما استمتعنا بمشية المساء فى الطريق بين رام الله والبيرة ..

وسنحت لى لحظات شفافية كانت تدهش من معى . الدكتور أحمد والست فايدة يتحدثان عن مسافة بعيدة فأذهب وأخبرهما عن الموضوع الذى يتحدثان فيه « وقد يكون موضوعا حساسا » ويستغربان أيما استغراب لاننى لا يمكن أن أكون سمعته .. وتكرر هذا بصورة لا أدرى تفسيرها . وكما كان حظنا من العمل كبيراً . فقد كان حظنا من الضحك والمرح كبيرا كذلك . وأذكر ممازحتى لاحمد لشغفه بأكل اللحم « الرئيس Carnivorous .. وفرحتى معه يوم ذهبنا للاستحمام وكانت حمامات المدرسة بعيدة فى آخر الفنـــاء .. وفرغت من الدش وخرجت آخذا ثياب أحمد معى .. ووقوفه خلف الباب الموارب يصيح بى ويتوعدنى وأنا أقول له مادام اسمك أحمد الملط فعليك أن تظل على حقيقتك . وكان الاخوة الاطباء الفلسطينيون يكثرون من زيارتنا للاســـتمتاع بالنكتة والقافية والقفشة المصرية حتى لو كانت النكتـة عليهم .. أذكر زميلا منهم كاد يسقط من الضحك عندما قال لى : « أما فى النكتة احنا بنمشى وانتو بتجرو » .. فقلت : « انتو بتمشوا ونحنا بنركب » .

من الذكريات غير اللطيفة خروج أحمد وراسم فى مشوار بالسيارة وانقلاب السيارة بهما فى طريق مقطوعة .. وفى اللحظات التى غابا فيها عن الوعى أو كادا كان تصرف الذين شاهدوهم أن يجردوهما من كل مايحملان .. الساعات والنقود وهكذا لم يتركوهما حتى يتيسر عون كريم من غير كريم . وآلمنا أن يكون هذا جزاءهما .

ومن الذكريات اللطيفة زيارة رجل وجيه يلبس بزة عسكرية وعقالا وكوفية ، عرفتنى به الست فادية على أنه « الامير محمد » .. ولا أدرى محمد ماذا .. وخلال

حديثه أراد أن يثبت لى مدى ثقافته وحصيلته العلمية ، فأخبرنى أنه يأخذ كل أسبوع ابرة بنسلين حتى يظل دمه نظيفا .. فكأنه غسيل أسبوعى .. وذكرنى ذلك بجهل طريف آخر من أيام الرملة .. اذ أتى مصاب يندب نفسه ويصيح « يا آل الكيالى .. زعيمكم قد مات » . وكان مصابا برصاصة فى بطنه وكالعادة وضعنا الكمامة على أنفه وفمه وأمرناه بالعد ونحن نمطر الكلوروفورم .. وعد صحبنا من واحد الى سبعة ثم توقف . وأجريت المشرط على بطنه لاشقه فاذا به يصيح من الالم . قلت الم نقل لك أن تعد ؟ فقال الزعيم معتذرا : « ما باعرف أكتر من السبعة » !..

كذلك زارنا أحد أفراد فريق الامم المتحدة الذى يرأسه الكونت برنادوت . وكانوا موزعين بين منطقة العرب ومنطقة اليهود .

وقال لى الرجل : « أتعلم ماهى مشكلتنا الكبرى فى المنطقة العربية ؟

وهيأت نفسى لمناقشة سياسية ولكن الرجل قال لى : « لا نجد هنا بنات » . وأجبته Becouse we are an hanawroble people

وانصرف فورا ولم يشاهد هو ولا أحد منهم عندنا بعدها أبدا .

اخبرنى كاظم انه حين انزل اسرته للقاهرة اتصل بأهلى واقامت لهم الوالدة وليمة عظيمة .. وراح كاظم - بالتالى - يروى لهم عن صور من بطولاتى ولا شك ان الوالدة احست بالزهو والفخر وكتب لى الوالد قصيدة ارسلها وانطبع كل ذلك بطبيعة الحال على ذهن اخى ماهر ذى الثانية عشرة ولاشك ان احاديث كاظم ساهمت فى ترسيخ اعجاب ماهر بى وتأثره بى وترسمه خطاى .

# العودة

لم تعد المسألة جهادا حربيا فى ساحة نضال .. وانما حياة مدنية رتيبة .. وأحسست من نجاحى كطبيب ومن حبى للبلاد مايغرينى على البقاء ولكن كان هناك هاتف المزيد من العلم وشق الطريق والدراسة والمستقبل، وبعد اعمال الفكر قررنا أن أعود مع خطاب ويبقى أحمد ريثما تأتيه الاوامر ماذا يعمل بالمستشفى . وعزمنا وتوكلنا على الله . لاشك أن سلوناس ستسعد لهذا القرار وأن أمى ستتعافى فأنا أعتقد أن أكثر نوباتها من القىء أو الالم كان تعبيرا عن شوقها الى ولهفتها على وان لم تصرح بذلك . ألم ينكر على أهلى وأساتذتى جميعا من البداية فكرة التطوع فى فلسطين بينما قالت هى : « هذا هو الواجب الذى لا أستطيع أن أمنعك عنه ؟ » وباقتراب السفر زاد الاسف على فراقنا بعد أن توثقت الصلات بيننا وبين أهل المستشفى .. وبلغ الامر مداه ليلة السفر على نحو لا أحسب الذاكرة تنساه مهما طال العمر .

وركبنا سيارة الاسعاف واتجهنا جنوبا نقصد غزة فالعريش كما سافرت أول مرة .. ولكن الطريق فاجأنا عند بيت جبرين بشبكة من طلقات الرصاص من كل مكان ومن كل اتجاه وبصورة كثيفة . وترددنا ترددا انعكس على سير السيارة فنحن نسترق الخطى حينا ونتوقف حينا .. حتى بلغنا على الطريق مجموعة من الجنود والضباط المصريين والسودانيين . أبلغونا أن معركة

بدأت منذ قليل وأن اليهود احتلوا مرتفعا يسيطر على الطريق .. لم تكن لديهم فكرة متى تنتهى المعركة ولا متى ينجلى الموقف .. ولم يستطيعوا أن ينصحونا أنغامر فنتقدم بأقصى سرعة أم نحتاط فنرجع ؟! ..

وجاءت سيارة جيب من بين ركابها الملازم محمد جلال أخو الدكتور عمر جلال أستاذنا فى الجراحة .. وآخرون . وآثروا هم أن يغامروا بالانطلاق جنوبا بأقصى سرعة .. بينما آثرنا نحن الاخذ بالاحوط فعدنا أدراجنا ومررنا بمركز اسعاف الجيش القريب حيث استقبلنا الدكتور عزيز فام النائب بقصر العينى . بعد قليل جاءت سيارة الجيب التى كان فيها محمد جلال .. كان الضابط الذى معه مصابا برصاصة فى بطنه وهو يردد : « الله يغفر لك ياجلال » أما جلال نفسه فقد استشهد الى رحمة الله . كان هذا اليوم هو بداية الانحسار المصرى الذى أفضى الى حصار الفالوجا ..

ورغم طول الطريق فقد قررنا السفر برا الى دمشق فبلغناها مجهدين خاصة وأننا كنا نسافر على طرق فرعية ضيقة ..

وذهبنا لشركة الطيران .. وجدنا موظفا وأبلغناه بأننا نريد العودة للقاهرة .. لم يكن مطمئنا أنه دق التليفون وطلب زميلا له قائلا : « اتنين دكاترة مصريين راجعين القاهرة . طلع الطيارة وعبيها بنزين واستعد للساعة الرابعة » . تغدينا كبابا بمحل على شاطىء بردى وأخذنا لمحة سريعة عن دمشق .. ثم للمطار .. وعدنا للقاهرة .. لتبدأ صفحة جديدة من حياتى .. ومن حياة مصر .. ولو علمت الغيب لادركت أن الايام كانت تتمخض بأمور جسام فى حياتى . وفى حياة مصر .



● الحاج امين الحسينى مفتى فلسطين ودولة النقراشى باشا وسمو الامير فيصل - اجتماع من اجل فلسطين

● الملك فاروق والملك عبدالعزيز آل سعود ثم الامير محمد على والامير سيف الاسلام عبدالله ، والامير محمد عبدالمنعم ، والامير عبدالله بن عبدالرحمن ، والامير محمد بن عيسى آل خليفة ، وعبدالرحمن عزام باشا ، اجتماع من اجل فلسطين ●



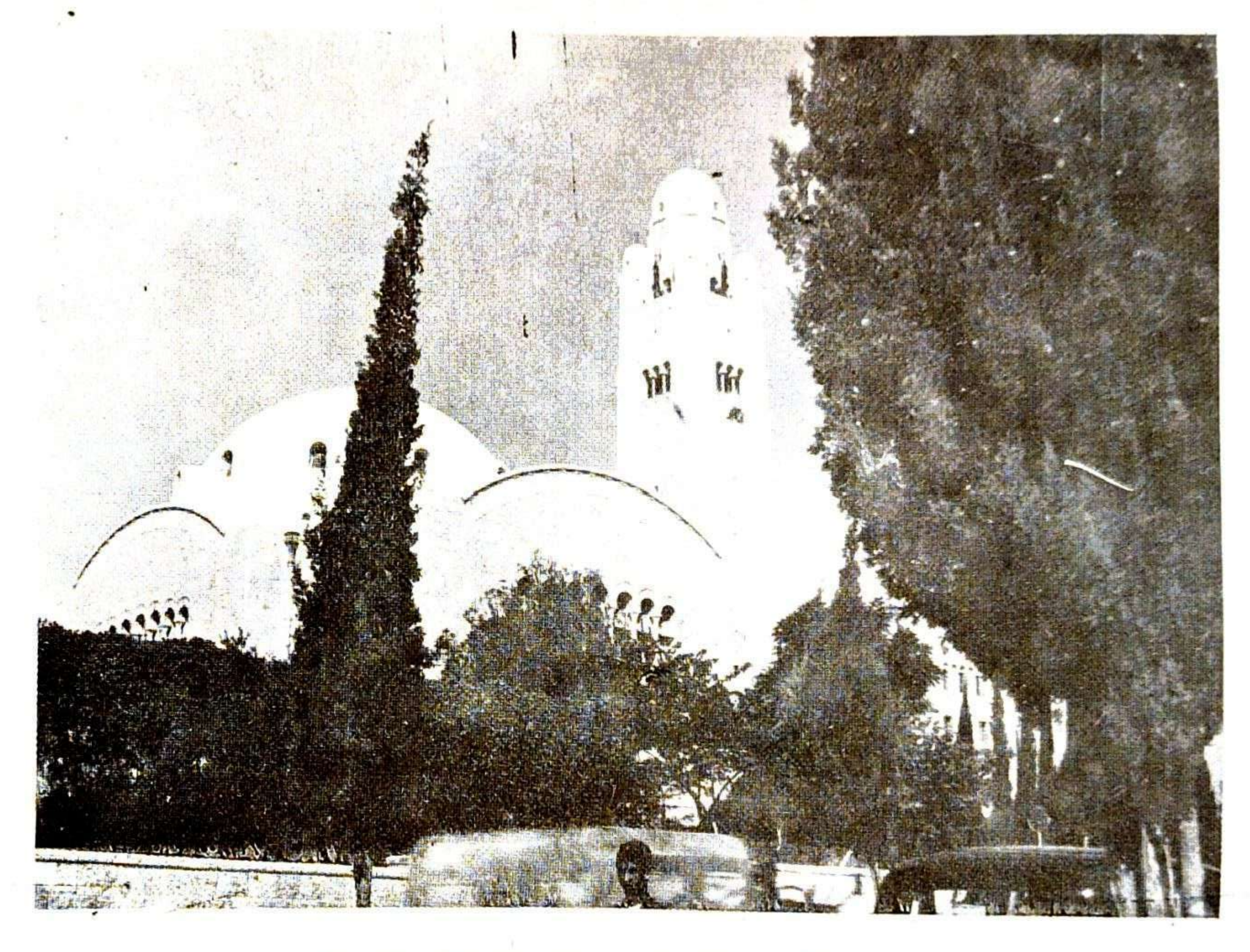
● الشهيد احمد عبدالعزيز قائد المتطوعين ، وهو يدرس احدى الخرائط مع كمال الدين حسين قبل ان تتمكن الخيانة من اغتياله وهو يؤدى رسالته فى الميدان ●



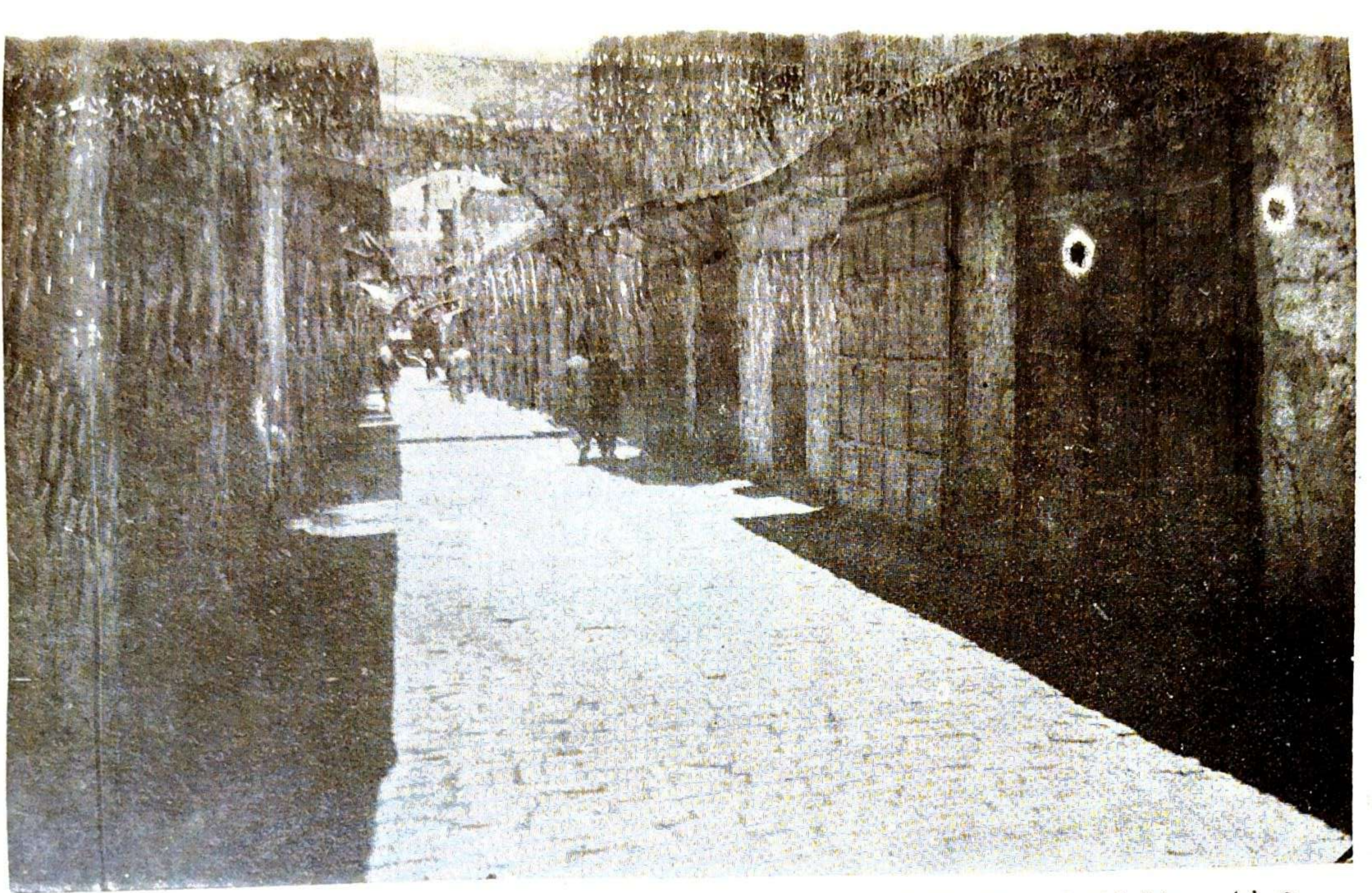
● البطل احمد عبدالعزيز وحوله لفيف من جنوده .. السوداني .. الليبي .. المصري .. وكلهم كانوا رجالا اثبتوا ان الشجاعة لاتنقصنا ●



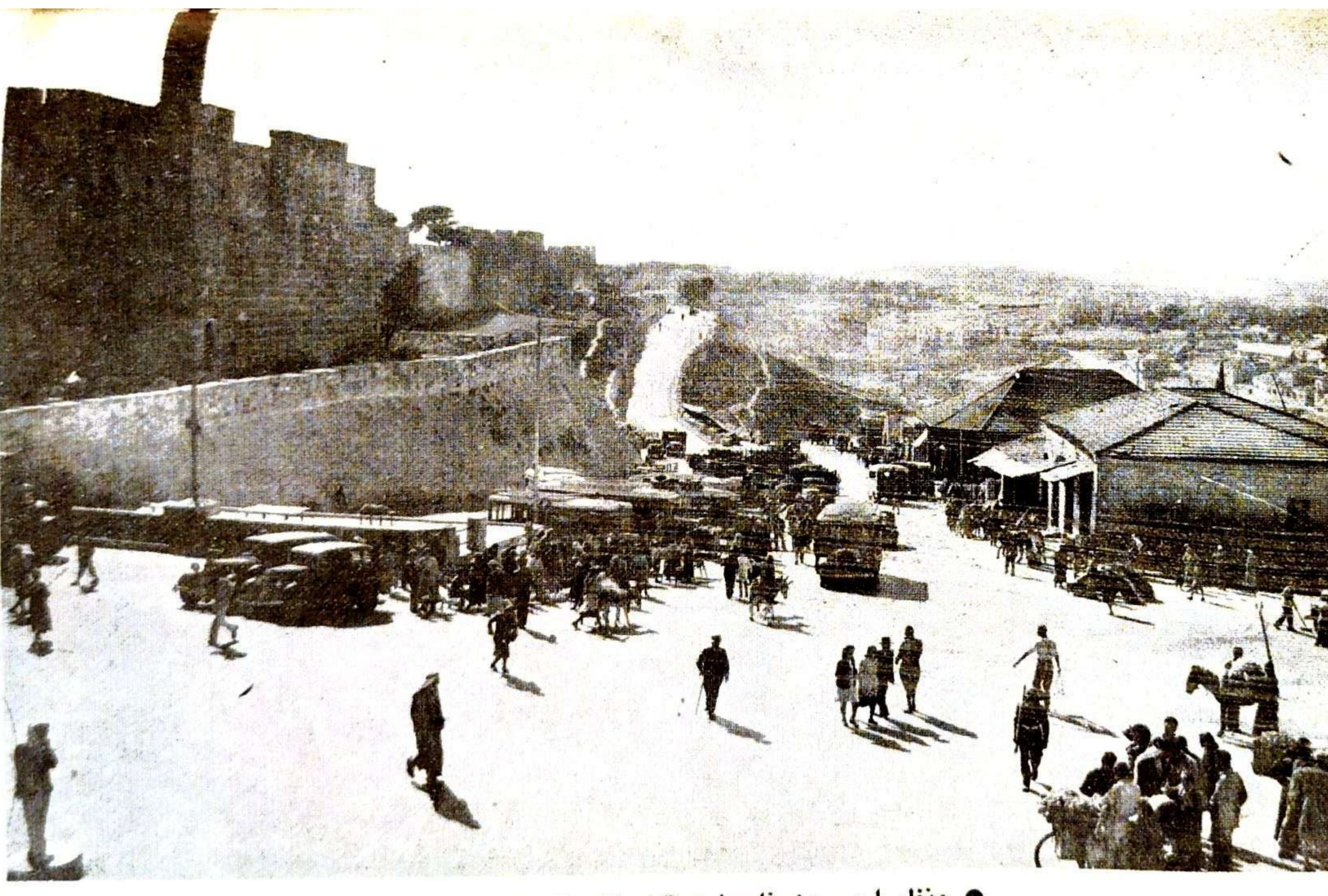
● مجموعة من الفدائيين ●



● القدس - فلسطين - قبل الاحتلال الاسرائيلى ●



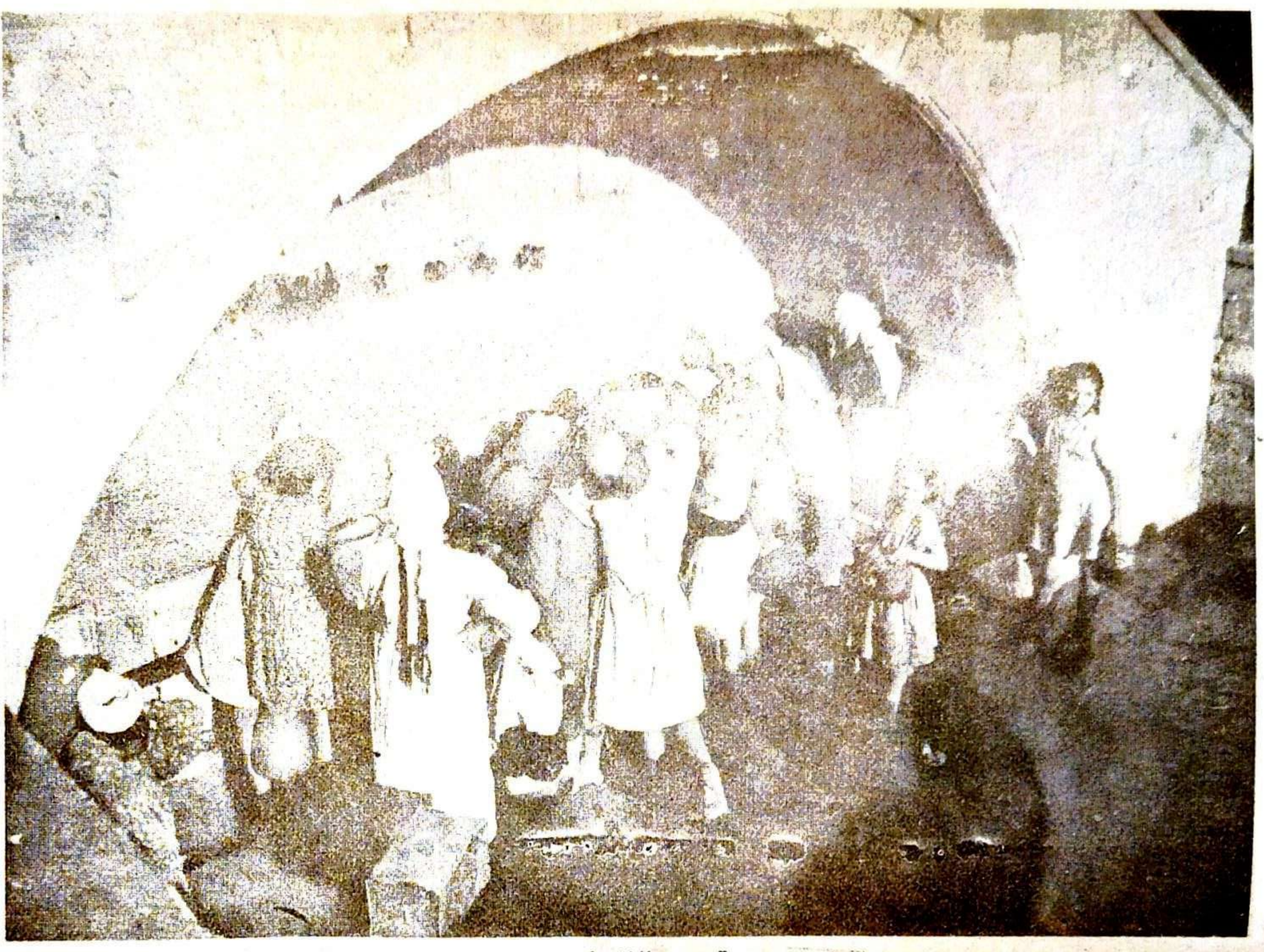
● شارع حارة النصارى يظهر خاليا من المارة بسبب الاضراب العام بمناسبة اعدام العرب الثلاثة فى عكا ●



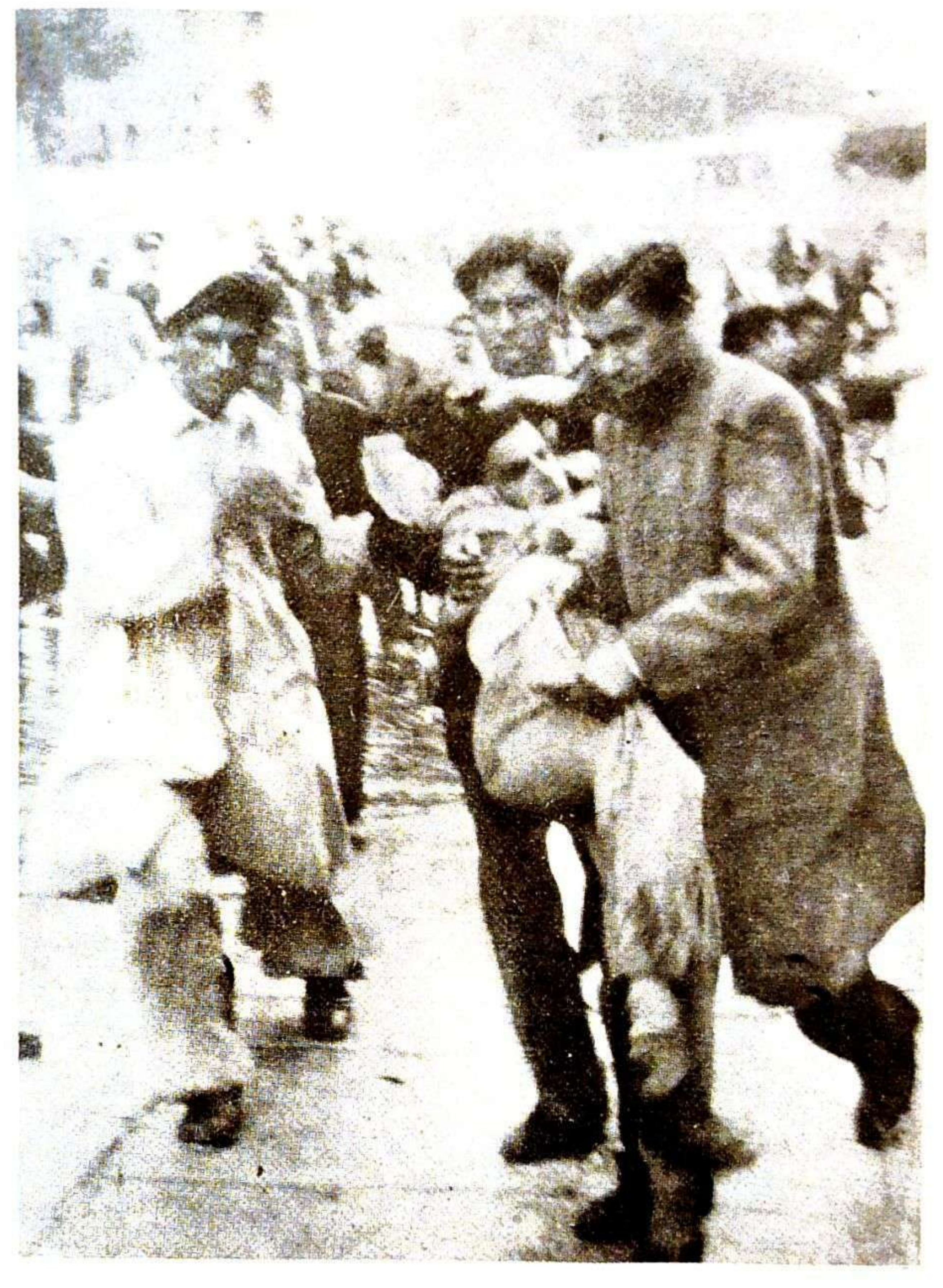
● منظر لحى من فلسطين قبل الاحتلال الاسرائيلى ●



● سوق اللاجئين فى رفح وقد خلت من المشترين حيث عزت على اللاجئين النقود ●



● مجموعة من اللاجئين الفلسطينيين ●



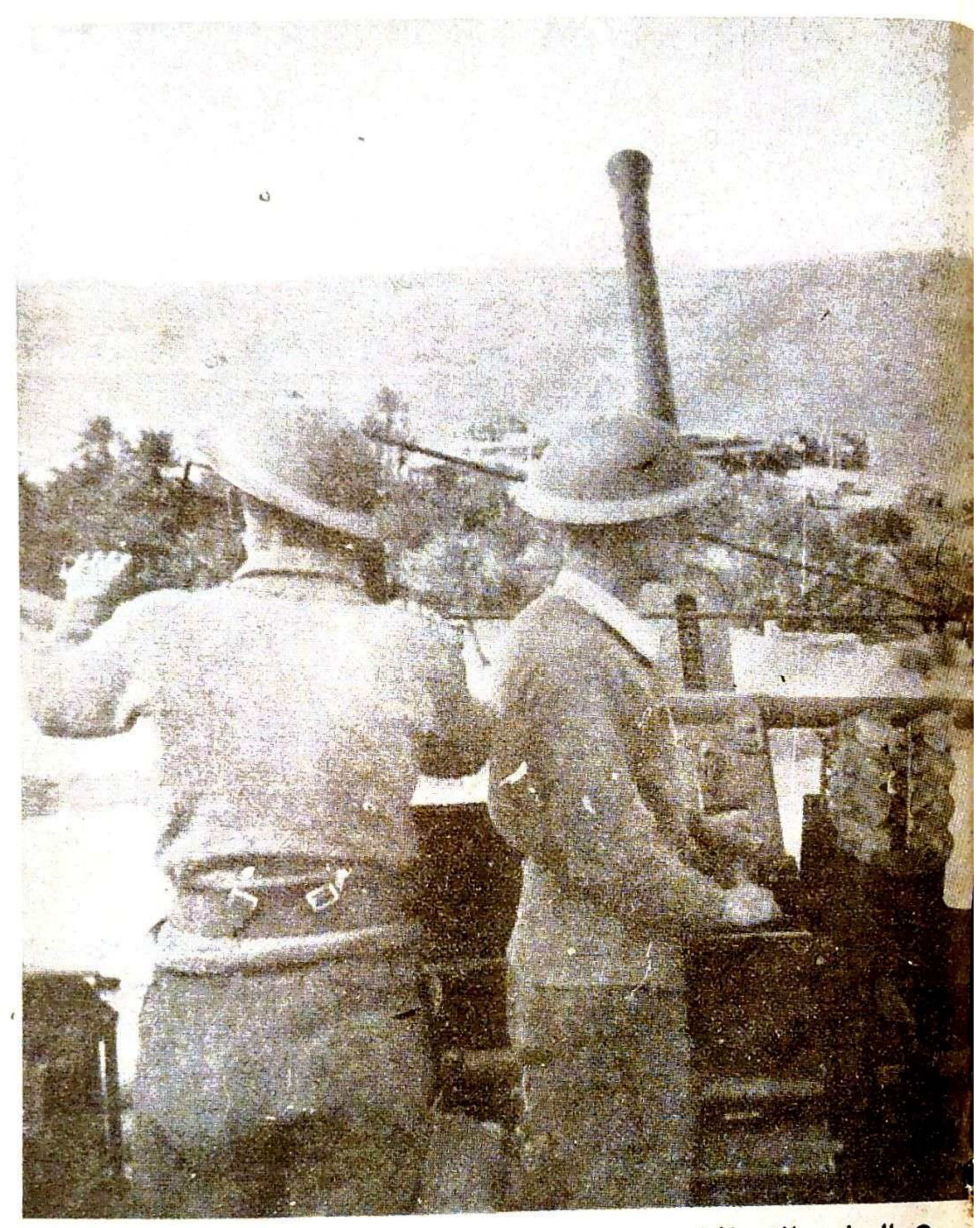
● احد الجرحى فى مظاهرات القدس .
وقد حملوه لاسعافه عند اقرب طبيب ●



● لم تكد جماهير المصلين يخرجون من الجامع الاقصى بالقدس حتى اصطدموا مع رجال البوليس ووقعت معركة ذهب ضحيتها فريق بين جريح وقتيل ●



● جهاد مصر فى قضية فلسطين ●



● الجنود الاسرائيليون بعد الاستيلاء على فلسطين ●



● رجل عربى فلسطينى ●

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٥٠١٣
الترقيم الدولى ٥ - ٣٦٠ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

# وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

**الكويت :** السيد / عبد العال بسيونى زغلول - الصفاة - ص٠ ب رقم ٢١٨٣٣

13079 - تليفون ٤٧٤١١٦٤

**اسعار البيع للعدد العادى فئة ٧٥ قرشا**

سوريا ١٨٠٠ ق . س ، لبنان ٣٥٠ ليرة ، الأردن ٥٠٠ فلس ، الكويت ٤٠٠ فلس ، العراق ١٦٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، السودان ٢٥٠ ق . سودانيا ، البحرين ١٢٠٠فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبى ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسة ، تونس ١٦٥٠ مليم ، المغرب ١٥٠٠ فرنك ، غزه والضفة ٧٥ سنتا ، اليمن الشمالية ١٣ ريالا ، عدن ١٤٤ سنتا ، الصومال ١٣٠ بنيا ، لاجوس ١٢٠ بنيا ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، لندن ١٥٠ سنتا ، اثينا ٢٠٠ دراخمة ، كندا ٥٠٠ سنت ، البرازيل ٦٠٠ سنت ، استراليا ٦٠٠ سنت ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .

## هذا الكتاب

بدأت نكبة فلسطين وشعبها عندما احتلها الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الأولى ، ودخل قائده الجنرال اللنبى مدينة بيت المقدس فى ديسمبر ١٩١٧ ، صائحا صيحة الفرح والنصر : «اليوم انتهت الحروب الصليبية» ! .. يقصد أن الحروب الصليبية لم تنته فى أواخر القرن الثالث عشر حين انتصر العرب والمسلمون وطردوا الاحتلال الصليبى الاستيطانى القديم من فلسطين وساحل الشام ، وإنما انتهت تلك الحروب حين انتصر الصليبيون الجدد فى الحرب العالمية الأولى واحتلوا فلسطين من جديد ، وإلى الأبد ، كما يتصورون ! ..

إن هذه الروح الثارية اللافحة المدمرة ، جلبت معها وفى أذيالها روحا ثارية أخرى أشد لفحا وتدميرا ، تتمثل فى المشروع الصهيونى لاغتصاب فلسطين واستيطانها ومحو شعبها من الوجود ، واتخاذها قاعدة للزحف على ماحولها من بلاد العرب والمسلمون شرقا وغربا ..

وفى سنة ١٩٤٨ هرول الاستعمار البريطانى فى حركة مسرحية مرسومة منسحبا من فلسطين ليخليها للصهيونية وحليفها الاستعمار العالمى الجديد ، فقامت «دولة اسرائيل» وانتزعت أرض فلسطين ، وطردت شعبها وألحقت به من الفظائع الدموية البربرية مالايمكن وصفه ! ..

وقد شهد الطبيب الأديب الشاعر الدكتور حسان حتحوت نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨ إذ كان يعمل هناك ضمن بعثة طبية مصرية فكان شاهد عيان دقيق الرؤية ، صادق الشهادة ، وسجل يومياته عن النكبة من الزوايا التى شاهدها بعينيه وامتلأت بها مشاعره ..

ومن يومياته هذه التى سجلها واحتفظ بها مخطوطة أربعين عاما ، أخرج هذا الكتاب الذى يروى فصولا من نكبة شعب فلسطين والشعوب العربية جمعاء سنة ١٩٤٨ .. تلك النكبة التى كانت بداية نكبات استثارت روح المقاومة فى الأمة العربية ، وبخاصة شعب فلسطين الذى انتظمته كله حركة تحرير عميقة صلبة بعيدة المدى ، عبرت عن نفسها بجميع أساليب النضال .

ولم تيأس مقاومة الشعب الفلسطينى ولم تتوقف حتى عندما وجدت أيديها خالية إلا من الأحجار .. بل اشتدت المقاومة ودخلت ثورة الأحجار الفلسطينية من أوسع أبواب التاريخ وأعظمها شرفا ! ..

٧٥ قرشاً